

الفصل الخامس

وصفة لزيادة ذكائك حدة

١

عندما نصل إلى هذه النقطة فمن المحتمل أن يقول القارئ اللبيب: «إن كل ما تقوله هو أن السعادة تتوقف على استعمال المرء لرأسه». تماماً، فاستعمال الإنسان لرأسه لكي يواجه مشاكل الحياة المحيرة هو الشيء الوحيد الذى يحاول الطب النفسى أن يعلمها للناس. إن سعادتك لن تعمر طويلاً إلا إذا استعملت رأسك.

فالعريس أو العروس الذى يعرف ما يريد من الزواج والذى فكر فى الطرق والأساليب التى يحقق بها حلمه يكون لديه أكبر احتمال فى أن يحتفل بعيد زواجه الخمسين (الذهبي). أما العريس أو العروس الذى ينجرف إلى الزواج انجرافاً فيكون لديه أكبر احتمال فى أن ينجرف إلى محاكم الطلاق. فإن كنت تريد زواجاً سعيداً فخير لك أن تستعمل دماغك. أما إذا لم تستعمله فقد يسعدك الحظ. ولكن الإحصائيات فى صف أولئك الذين يبنون اختياراتهم على الذكاء.

والناس الذين يختارون أزواجهم بذكاء لا يكون لديهم دائماً الإدراك السليم الكافى لكى يطعموا بذكاء. وفى بعض الأحيان لا يكون لهذا الأمر أهمية كبيرة. فيبدو أن هناك عدم اتزان فى عادات التغذية للسير ونستن تشرشل وإلا لما كان بديناً هكذا — ولكنه عاش ليحتفل بعيد ميلاده الثمانين. ولكن برغم هذا المثل المجيد فإن الإحصائيات فى صف أولئك الذين يطعمون بذكاء، فإذا كان زواجك سعيداً وتود أن تحتفل بعيد زواجك الذهبى فخير لك أن تطعم بذكاء. وإن كنت تشك فى ذلك فاكتب للمركز الرئيسى لأية شركة تأمين لكى توافيك بالإحصائيات فى هذا الشأن.

صحيح أن الحب والصحة تنتعشان فى جو من الذكاء. ولكن ما تأثير المال؟ يقول الكاتب الكبير سومرست موم فى كتابه «الخلاصة» إنه قابل كثيراً من الزعماء والقادة فى السياسة والاقتصاد ولكن أحداً منهم لم يترك فى نفسه أثراً أو انطباعاً خاصاً من ناحية ذكائهم. وربما كانت ملاحظته تلك مما يزيد فى غبطة أولئك الذين ليسوا بقيادة فى ميادين السياسة والاقتصاد

ولكنهم يطمعون في ذلك في المستقبل. فمما يبعث دائماً على الارتياح أن يرى العظماء وقد تعرفوا وأفرغوا. ومع ذلك فأنا لا أثق في ملاحظة سومرست موم إذ كان على أن أتعامل مع رجل ناجح. فقد يبدو كالبطة الميتة حينما يكون مسترخياً فوق كرسي على سطح مركب في رحلة عبر المحيط، ولكن إذا كان عليك أن تواجهه في شغل فربما رأيت تدب فيه الحياة فجأة في تغير رائع.

فما هو الذكاء؟ أليس هو شيئاً يولد مع المرء، شيئاً لا سلطان للإنسان عليه؟ والذكاء كما أقصده وأعنيه هو المقدرة المهذبة بالتربية والتعليم. فالقدرات أو المواهب سواء جلت أم صغرت تنمو بالتدريب. والذكاء يمكن أن يزيد بالتدريب الذكي.

خذ مثلاً حالة ثلاثة أطفال في سن العاشرة كانوا يأخذون دروساً في اللعب على الكمان من أحد المدرسين. وبعد سنة من العمل تعلم الطفل رقم ١ ما يقارب ما يتعلمه المبتدئ في عام. فإذا استمر على هذا المنوال فسيحظى بكثير من المتعة مع كمانه، وربما اشترك مع مجموعة من الهواة فنالوا الاستحسان الكبير.

أما الطفل الثاني فقد تعلم ما يعادل أربعة أضعاف ما تعلمه الطفل الأول. وبهذه المقدرة الكبرى ربما استمر ليصل إلى أن يكون لاعب كمان محترفاً. وربما لا يصل إلى مستوى لاعبي الكمان العالميين ولكن سيكون في مقدوره على الأقل أن يحتفظ بعمله في فرقة أوركسترا سيمفونية.

أما الثالث فقد تعلم أسرع من الأول بعشرة أضعاف. إنه إذا في طريقه لأن يصبح لاعب الكمان لجوقة موسيقية. إن موهبته فذة.

فهؤلاء الأطفال الثلاثة يمثلون ثلاثة مستويات من الذكاء الموسيقي.

وهناك حالة رابعة يمكن التفكير فيها - وهي حالة الطفل الذي لم ير أو يسمع أية أداة موسيقية في حياته. فهذا الصبي لن يكون أبداً موسيقياً. وربما حين يكبر لن يعرف حتى كيف يستمع إلى الموسيقى. وربما قلت عنه إنه ضعيف الذكاء في الموسيقى برغم أنه كانت لديه وهو طفل إمكانية أن يصبح عبقرية موسيقية. أو بعبارة أخرى فإن القابلية للتعلم يمكن أن تتحطم بعدم الاستعمال.

ومن هنا نرى أن الذكاء ليس بالضرورة شيئاً يولد معك. إذا فما أمر المواهب؟ فالمواهب منها شيء يكمن في طبيعة الفرد وشيء آخر يُنمى بالتربية والذكاء هو سلوك متعلم يظهر بالعمل. إنه فعل الشيء المناسب في المكان المناسب والوقت المناسب. فالطريقة الوحيدة لتعلم ماذا تفعل.

وكيف تفعله هو أن تتعلم من أولئك الذين فى مقدورهم أن يعلموك. وهذا الكلام ينطبق على الذكاء الموسيقى أو الذكاء فى علوم الرياضيات أو فى العلوم الاجتماعية. إنه ينطبق على كل موقف من أى نوع يؤدى فيه استعمالك لدماعك إلى النجاح والسعادة.

وكل بالغ مفكر يضطر أحياناً إلى أن يستعيد الأخطاء التى عملها حين تصرف بذكاء أقل من العادى. وسيعانى من العذاب وتبكيك الضمير بحسب ما يحتضن من فلسفة للحياة. فلو أنه استعمل دماغه بطريقة مناسبة فى اللحظة المناسبة لوفر على نفسه الكثير من المتاعب. ولن يكون تأكده من قوة تصميمه وأنه بذل أقصى ما فى وسعه إلا عزاء متواضعاً لشخص يعلم أن أداءه كان ضعيفاً. بل إن الحقيقة نفسها. وهى أنه كان قوى التصميم وأنه حاول جاهداً، مما قد تزيد فشله مرارة.

وهنا يجب أن يكون لنا بعض القواعد العامة التى تساعدنا على أن ندعم قوة التصميم والبطولة فى المسعى وبذل الجهد بالأساليب التى تزيد من فاعليتها. فلا بد أن هناك طريقة نستطيع أن نزيد بها عدد ميادين السلوك الذكى كما تزيد فى رحابتها. فإن لم يكن هناك طريقة لذلك فىا لضیعة التعليم ویا لضلالة الطب النفسى.

ولكنى أؤمن بالتربية والتعليم وأؤمن بالطب النفسى. ولقد رأيت منات البشر وهم يتعلمون كيف يتصرفون بذكاء أكبر فى مواقف سبق أن ارتبكوا فيها وتعثروا. ولكن كيف تعلموا أن يزيدوا من ذكائهم؟ أليس هناك أسلوب عام نستطيع نحن جميعاً أن نتبعه؟

ولكى أحصل على وجهة نظر علماء النفس الحديث عرضت مشكلة نموذجية أمام عدد من الأصدقاء الذين يدرسون علم النفس أو يشتغلون بالطب النفسى كمهنة.

والمشكلة تتعلق بكاتب تتخاطفه السينما والتليفزيون. ولو عرضت عليه موقفاً مؤثراً لأخبرك فى دقيقة إن كان يصلح لهذه الأجواء - السينما والتليفزيون - أو لا. وإذا كان الموقف فيه احتمالات مسرحية ولكنه ليس كما يجب، ففى إمكانه أن يقترح بعض التعديلات التى تجعل الحكمة معقولة والقصة مؤثرة مثيرة. وأكثر من ذلك فإن له عقلاً خلاقاً. فهو يستطيع أن يضع سلسلة من المواقف التى تتزايد فى تأثيرها الدرامى حتى تصل إلى القمة. وبالاختصار: إنه كاتب قصة ذكى.

ولقد كتب فى النقد الفنى لعدة صحف فرنسية وألمانية. بل هو يشعر بالألفة وهو فى باريس أو برلين أكثر مما يشعر بها وهو فى نيويورك أو هوليوود. وبالطبع فهو يتحدث بالفرنسية والألمانية بطلاقة وهو على اتصال وثيق بالمشرح الأوروبى. كما أنه واسع الاطلاع ببعض النواحي الأخرى من الثقافة الأوربية منها فن الرسم والعمارة.

فهل هو ذكي؟ حسناً فمن الذى يستطيع أن يقول ذلك؟

فلماذا هو إذا أحد زبائن الطبيب النفسى؟ ذلك لأنه يقامر، وعندما يقامر فإنه يخسر كل نقوده، وينتابه اليأس فيسزف فى احتساء الخمر ليغرق فيها مشاكله. وقد يهتفى وتنقطع أخباره لمدة أسبوع أو أسبوعين لا يكون فيهما لدى زوجته أو مكتبه أية فكرة عن كيفية الاتصال به. وهذا ما يؤدى إلى تعقيدات مالية فى المنزل. وزوجته فى حيرة هل تنفصل عنه بالطلاق أو تستمر فى التستر عليه أملا فى تحسن يطرأ على حاله. وبدأ كبار أصحاب الاستوديو فى التفكير كرتين قبل أن يكلوا إليه عملا مهماً. وأصحابه يتساءلون: «كيف يمكن أن يصير رجل بهذا الذكاء مغفلاً إلى هذا الحد؟»

وقد أحلت تساؤلهم إلى أصدقائى من علماء النفس الذين استطاعوا أن يجعلوا تفكيرى متمشياً مع أحدث الآراء عن الذكاء. وكان ما علمونى إياه يبعث على التشجيع لأولئك الذين يودون أن يعيشوا حياتهم على مستوى أرفع من الذكاء.

فكل واحد من علماء النفس الذين استشرتهم استعمل تعبيراً مخالفاً ليصف ذكاء مريضى. فأحدهم وهو أستاذ سابق لعلم النفس فى جامعة كاليفورنيا الجنوبية قال: إن هذا المريض يظهر منه أنواع كثيرة من الذكاء النوعى. واستعمل آخر وهو مدرس بجامعة كاليفورنيا فى لوس أنجلوس - استعمل تعبيراً آخر هو «الذكاء العامل». وقال ثالث وهو يشغل مركزاً مرموقاً فى تنظيمات المحاربين المسرحين قال إن لمريضى أنواعا كثيرة من «الذكاء الفعال» فالذكاء النوعى أو الذكاء العامل أو الذكاء الفعال. كلها تؤدى إلى شىء واحد هو الذكاء الذى يعمل.

أما بخصوص الذكاء العام أو القدرة العامة على التعلم. فقد قالوا إنها قد تكون أو لا تكون موجودة. وعلماء النفس الحديث منقسمون على أنفسهم فيما يختص بهذا الموضوع. فهل هناك شىء اسمه «الذكاء العام» الذى يشيرون إليه باسم «المعامل ج» (ج هو الحرف الأول فى كلمة عام بالإنجليزية) فهذا ما زال فى عالم الحدس والتخمين والرأى الفردى. (وسأتكلم بعد ذلك بإسهاب عن الذكاء العام). ولقد قمت بإجراء الآلاف من اختبارات الذكاء فى عهدى وأسفصحت عن رأى فيها بعد ذلك.

على أية حال، فقد أشار هؤلاء العلماء النفسيون إلى أن عملى ينحصر فى أن أدفع بمريضى ليزيد من ذكائه فى السيطرة على نوازعه التى تدفعه للمقامرة والإفراط فى السكر، وإلى تحسين موقفه العائلى وفى العمل.

وبدا لى هذا مفهوماً. فلكى يصبح الناس سعداء فلا بد لهم من استعمال ذكائهم فى السيطرة على أنفسهم وقيادتها. ومن الواجب عليهم أن يتعلموا أساليب نوعية خاصة تساعد على قول وفعل الشىء المناسب فى المواقف التى تنشأ باستمرار فى حياتهم اليومية.

فهناك طريقة أحسن وطريقة أسوأ لفعل أى شىء. وعندما يتعلم المرء كيف يجعل الطريقة الأحسن تحل محل الطريقة التى تعود عليها فإنه بذلك يزيد من ذكائه المؤثر أو الفعال. والذكاء حين يعمل يؤدي إلى نتائج ، والنتائج تجعل الناس سعداء.

وفى كل يوم نرى دليلاً جديداً يؤيد الفكرة بأن الذكاء العامل إنما هو ذكاء نوعى وليس عاماً. كما أنه - تأييداً لهذا الرأى - جاءنى أحد طيارى الاختبار كان يقود الطائرة التى كانت تقلنا لحضور جنازة صديقنا المشترك جورج. س. الذى كان هو أيضاً من طيارى الاختبار وقد قضى نحبه منذ ثلاثة أيام فى آخر طيران فى حياته. وقد سألت:

○ لماذا لم يستطع جورج أن ينجو؟

فأجاب رفيفى: لقد انتظر أكثر من اللازم. ففى لهفته لإنقاذ الطائرة، تأخر، فلما تأكد أنه ليس فى مقدوره إنقاذها قفز، ولكن بعد فوات الأوان.

وقد شعرت بالانقباض والشيخوخة وأنا أفكر فى تلك الأيام أثناء الحرب العالمية الأولى حينما كنت أنا وجورج نعمل فى مطار لوف بدلاس فى تكساس. وحدث أن أخذنى معه مرة فى طائرة مصنوعة من العصى والأسلاك والقطن المدهون بالجمالكة.. والأمل. وقد أفزعنى وأطار صوابى عندما أرانى كيف يخرج من دورة حلزونية بالطائرة وكان يقول: «إنها سهلة لو عملت من الارتفاع الكافى». وكان ينجذب نحو الخطر كما تنجذب الفراشة نحو الضوء، والآن فهاهوذا أمامنا يمتطى متن آلة حدياء.. إنها نعشه.

وذكرت حادثة أخرى حينما كنا نطير فوق طريق زراعى، واستمر جورج يهوى بطائرته على العربات المحملة بالقطن ثم يهدر صاعداً. وكان الفلاحون يقفزون من عرباتهم ويهربون إلى الحفر. وما كان يحب إفزع القوم إلا لمجرد الضحك والعبث، ولكنه كان يعد نفسه للعمل فى فرنسا فضلاً عن أنه كان مستعداً لعمل أى شىء ليذهب عن نفسه الملل الملازم للحياة العسكرية. فكم كانت حياتنا رخيصة علينا فى هذه الأيام! وسمعت نفسى أقول: «لقد كان يحب الطيران الدائرى».

ثم قال طيار الاختبار: والآن خذنى أنا مثلاً فأنا أختبر الطائرات منذ أن تركت قصف الحقول فى عام ١٩٢١. ولقد رأيت الكثير يموتون كما مات جورج، أما أنا يا دكتور فأبنى أقولها لك، إننى أطيّر بذكاء.

فانتزعتنى الكلمة الأخيرة من تأملاتى وبدأت أنتبه. وشجع رفيفى التغيير فى حالتى النفسية فاستطرد قائلاً:

○ فكما ترى يا دكتور قد حفظت في تصوري ما يجب عمله في حالة أية حادثة يمكن أن تحدث. حسناً. فقد يحدث شيء كأن تشتعل النار في المحرك أو في شيء آخر. وعندما لا أفكر بل أعمل وأتصرف. فأنا أعلم أنني كنت أستطيع إنقاذ الطائرة أو لا. فأنا لا أجعل من رأسى ندوة للنقاش. وليس كما فعل جورج في المرة الأخيرة. فقد فكر أنه من المحتمل أن ينقذ الطائرة، وعندما تبين أنه لا يستطيع قفز ولكن بعد فوات الأوان. فأنا شعاري «كن مستعداً» ولهذا السبب فأنا ما زلت أعيش إلى اليوم. إن المسألة كلها هي أن تستعمل دماغك. وأى إنسان يحاول أن يتصور ما يجب عمله في الوقت الذي يعمل فيه فعلاً يعرض نفسه لارتكاب الأخطاء، سواء كان يختبر طائرة جديدة أم يصيد الأرناب. إننى أعلم مقدماً ما يجب فعله - والذي أعنيه هو أنني أظير بذلك.

وبدون أن يدري عبر زميلى في الجنازة عن نظرية «ثورنديك» عن الذكاء النوعى. فهو لم يكن يعرف أى شيء عن الاختبارات العقلية أو النظريات النفسية، ولكنه كان يعلم شيئاً ذا قيمة أكبر بالنسبة له، فقد كان يعلم ما هو بسبيل الحديث فيه.

وقد كان العالم الراحل الدكتور «إدوارد لى ثورنديك» أستاذ علم النفس فى كلية المعلمين بجامعة كوليبيا. يعبر عن نفس الفكرة، ولكن فى عبارات تختلف بعض الشيء. وملخصها فى جملة واحدة هو: أن الذكاء نوعى. فأكد الفكرة بأن الناس تتصرف بذكاء يزيد أو ينقص فى الأوقات المعينة وداخل إطار من المواقف المعينة.

ولا حاجة بى أن أصرح بالأثر الطيب الذى تركه «ثورنديك» على التربية الأمريكية والنفسية الأمريكية. فالآلاف من تلاميذه ورفاقه ربما استطاعوا أداء ذلك خيراً منى. ولكن كل ما أستطيع قوله هو أن «ثورنديك» قد أتى بشيء مفهوم. فقد ساعد بفكره الناس على أن تكافح المشاكل والضغوط اليومية بطريقة أشد ذكاءً وبالتالي أكثر فاعلية. فما الذى يستطيعه المرء من المديح أكثر من ذلك؟

فطبيعة الذكاء النوعية يمكن إيضاحها بحوادث السيارات. ولقد قابلت فى حياتى الكثير من البشر المتواضعين ولكنى لم ألق حتى الآن أى فرد ينكر أنه سائق ذكى. ومع ذلك فى كل عام يقتل فى هذه البلاد فى حوادث السيارات حوالى ٣٨٥٠٠ نفس، كما أن عدد الجرحى قد يصل إلى مئات الألوف. فلا بد أن تكون هناك مغالطة ما. فبعضهم قد لا يكون من الذكاء كما يزعم. أليس من الممكن على الأقل أن يقال: إن استعمال الذكاء بطريقة ذكية قد يمنع الآلام والتعاسة التى تنتج من حوادث السيارات؟

فهل تسأل نفسك عندما تقود سيارة: «ماذا أحاول أن أفعل؟ وما الذى أقصد إليه؟ وهل أتخير أحسن الوسائل فعالية لتحقيق غرضى؟ وباختصار هل أقود السيارة بذكاء؟»

وبناء على طلب الزوجة القلقة فقد سألت أحد المرضى هذه الأسئلة وكان مهندساً ميكانيكياً متخرجاً من الجامعة وقد أجاب :

○ إننى لم أسأل نفسى أبداً هذه الأسئلة السخيفة. فحين أريد التوجه إلى أى مكان أجلس فى السيارة وأقود بطريقة تستطيع أن تسميها عشوائية.

وحدث ما كان مقدراً. ففى يوم من الأيام وأنا أركب مصعد المستشفى لأصل إلى غرفته ، تذكرت قول ثورو: «إن الناس على طول المدى يقعون على ما يهدفون إليه». فمرضى لم يكن ليخطئ وإنما كان يتحرى.

فسألته إن كنت أستطيع أن أفعل له شيئاً. فقال:

○ قل للممرضة حان الوقت لجرعتى من المورفين (المخدن).

إنه لا يصح أن تعاتب شخصاً مريضاً ولكنى لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى خطر الرأى فى أن يتفادى الإنسان الألم بأن يضيف إلى ألمه آلاماً جديدة، فإنه لكى يتفادى الألم يأخذ المورفين وهو أسوأ اختيار.

إنك حين تفعل شيئاً ما فإنك تهدف من ورائه إلى شىء. وإنها لصفقة رابحة أن تعلم ما تستهدفه من غايات من وراء تصرفاتك وهذا حسب ما قال صديقى الطيار ما يسمى بالذكاء. والتفكير يزيد من استمتاعك بالحياة. وأظن أن هناك أناساً يستمتعون بتصويب بنادقهم نحو القمر ثم يطلقونها لا لشىء إلا الاستمتاع بصوت الانفجار ولكن فى رأبى أنا أن التصويب على هدف محدد أكثر متعة من ذلك، فالحياة تبدو مشوقة تثير الاهتمام عندما أدرى ما أنا بسبيله من أهداف وأحسن من ذلك عندما أعلم لماذا أفعل ما أفعله.

إن معظم الناس التعساء فى مجال علاقاتهم الشخصية يتصرفون بذكاء أقل مما يكفى لمواجهة الموقف. إن حوادث التصادم بالسيارات التى يمكن اجتنابها تبدو نادرة إذا قورنت بحوادث اصطدام الشخصية التى يمكن تجنبها. ومع ما تسببه حوادث التصادم المادية من سوء فهى أقل ضرراً وخطراً من الاصطدام فى العلاقات الإنسانية. فإن التصادم بين الشخصيات من أكثر الأشياء تحطيماً للسعادة الإنسانية.

ولكن كيف يستطيع المرء أن يعلم مقدماً وبالتحديد ما يجب عليه عمله أو قوله فى كل المواقف الاجتماعية؟ فهناك قوانين للمرور يمكن أن يسترشد بها الإنسان فى قيادة سيارته. فهل من الواجب على الإنسان أن يحصل على رخصة للقيادة قبل أن يسمح له بمناقشة موضوع الجو أو حالة الدولة مع زوجته أو صهره؟ فإذا كان الأمر كذلك فأين هى القواعد التى يجب

حفظها عن ظهر قلب لاتباعها؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يعلم مقدماً إلى أين سيقوده لسانه الطويل؟ وما هي علامات الطريق الموجودة التي تحذر الإنسان من المنعطفات الخطرة وأماكن الإبطاء في السير؟

هذه الأسئلة معقولة، ومن حسن الحظ أنه يمكن الإجابة عنها.

فلنذكر أن الذكاء ليس عنصراً أو عاملاً عاماً بل هو عناصر معينة مخصصة. وهذا الكلام ينطبق على العلاقات الإنسانية. فهي لا ترتبط بالبشرية على إطلاقها. بل تتصل بأشخاص معينين محدودين. ففكر وأنت تقرأ هذه السطور في أسماء الناس المعينين الواجب عليك التعامل معهم في حياتك اليومية.

وكما أنه من الواجب عليك أن توائم بين قيادتك لسيارتك وبين الظروف المتغيرة في الطرق، فكذلك كان لزاماً عليك أن توائم بين استجاباتك وردود فعلك في التصرف مع الناس وفقاً لخواصهم الشخصية والسلوكية فكل واحد منهم فرد متفرد يتطلب ويستحق معاملة خاصة. «ولكن هذا يعتبر نفاقاً» وكان هذا اعتراضاً وجهته لى إحدى مريضاتي عندما أخبرتها أن توائم بين ما تقوله وبين الشخص الذى تحدثه. ولكنى لا أوافق على رأيها. فأنت لا تستطيع أن تناقش ميزانية أسرته مع طفل فى الثالثة من عمره أو شخص تعرفه معرفة سطحية عارضة. كما أن أى شخص فى كامل وعيه وسلامة تقديره لا يمكن أن يكشف نفسه أمام سكرتيرته كما يفعل مع زوجته إلا إذا كان مصراً على فتح باب المشاكل أمام نفسه. والمشاكل رفيق طبع والذين يبدءون برفقة المشاكل ينتهون بالزواج بها. ولكى تتفادى هذا وغيره من الأخطار ضع على لسانك فرامل قوية.

والإنسان ممثل مفروض عليه أن يلعب أدواراً عديدة فى حياته. فهو ابن أولاً، ثم قد يكون زوجاً وأباً وصاحب حرفة أو عمل ورجل أعمال وصديقاً وجاراً. والذى يحدد عدد الأدوار التى عليه أن يلعبها هو فقط عدد الأشياء التى يهتم بها وينشط فيها. وفى كل مقام يقوم هو بتمثيل الدور الذى يناسبه ويلقى الكلمات التى يتطلبها دوره. فإذا استطاع أن يفكر قبل أن تسنح الفرصة للتمثيل والكلام فسيكون فى مقدوره أن يمثل بذكاء حين تحين الفرصة وهذا هو ما يخلق العلاقات الإنسانية التى تجلب الرضا والجزاء.

ولنبحث الآن موضوع المريضة التى جعلت من التفكير قبل الكلام معادلاً للنفاق. فقد كانت زوجة شابة تركت منزل أسرتها فى سن الثامنة عشرة لتنجو من تحكم وسيطرة أب تغلب عليه القسوة. والآن وقد تزوجت ولها أطفال تعنى بهم فقد دعت أبويها للنزهة فى زيارة لها لعدة أسابيع فى منزلها بكاليفورنيا.

وعندما زارتنى فى صباح أحد الأيام لتستشيرنى كانت على درجة من التوتر واضطراب الأعصاب لدرجة لا تستطيع معها أن تستقر فى جلستها. فقد أثارت مشادة مع والدها الذى ثار هائجًا. وكانت المشادة بخصوص الطريقة المثلى لتربية الأولاد. فقد صرخ قائلاً إنه ليس هناك من بديل للعصا الغليظة. فارتعشت مريضتى التى تذكرت العُلق التى كبلت لها وهى طفلة.

ومن السهل على المرء أن يدرك لماذا تصرفت هذه الزوجة الشابة بتلك العاطفة الجامحة. فهى تذكر كما قالت كيف أن أباهما ضربها بدرجة من القوة جعلتها فى حالة تشبه الموت لمدة يومين. أما الآن فقد هرم وأصبح مريضًا. وكانت كل ما تريده هو أن تنسى الماضى وما فات فات.

وكان فى استطاعتى أن أتخيل كيف بدأت المناقشة ولكن زيادة فى التأكد طلبت منها أن تحدثنى عن ظروف الحادثة كأقرب ما تتيج لها ذكرتها. فجاءت كما توقعت: فقد كانت حى التى أثارت السؤال عن تربية الأولاد. إنها كانت تدرك ما سيقوله أبوها. ولم تكن فى حاجة إلى نصائحه وأفكاره. فكان من الطبيعى أن أدهش للسبب الذى حدا بها أن تسوق مثل هذا الموضوع المثير. فسألت فى اندهاش: «أليس لى الحق فى أن أعبر عن نفسى فى بيتى أنا؟».

ولللشخص الواحد عدة نفوس كل منها تتزاحم لتعبر عن نفسها. فمثلاً كان لمريضتى فى منزلها النفس المختصة بالزخرفة الداخلية، والنفس المختصة بالإطعام. والنفس المضيفة بالإضافة إلى النفس المليئة بالكراهية والحقده التى كانت تحاول التخلص منها.

إن إيواء الأحقاد القديمة يسم الشخصية كما تفعل الأوراق الساقطة من بعض الأشجار حين تسمم التربة. إنها تمنع النمو الجديد. وكانت مريضتى على درجة من الذكاء تسمح لها بإدراك ذلك ومع ذلك فقد تصرفت بدرجة بعيدة عن الذكاء. فقد سمحت لأقل نفوسها رضا من أن تعبر عن نفسها وبطريقة أبعد ما تكون عن الذوق وفى بيتها الخاص. فلا غرو بعد ذلك أن شعرت بالأسف.

وهى فى إفصاحها عن كراهيتها لوالدها المكبوتة قد أصابت الهدف الذى كانت تريده من أول طلقة. وفى استطاعة أى صياد أن يخيرك عن رد الفعل القوى الذى يحدثه فيه انطلاق قذيفة قوية وقد يصيبه ببعض الأضرار. وهذه الزوجة الشابة لم تكن على استعداد لتحمل رد الفعل من قذيفتها القوية فتضررت من رد فعل الكراهية التى ظهرت منها. كما أنها لم تكن على استعداد لرد والدها بقذائفه المضادة القوية. فلا عجب أن أثار هذا التلاقى أعصابها. وهذا هو المثل الأوفى لتحطم العلاقات الإنسانية نتيجة للسلوك غير الذكى. وقد سألت: وماذا كان على أن أفعل؟

فماذا كان هدفها؟ وما الذى كانت تريد تحقيقه؟ هل هى علاقة سارة مع أبيها وأمها؟ إذا لسألت والدها عن طفولته فى البلاد التى أتى منها وتجاربه الأولى فى أمريكا. وكان يمكن أن تسأله أن يحدثها كيف تعلم صناعة البناء، وكيف تعلم الحديث بالإنكليزية وكيف بنى نفسه كمقاول فى أعمال البناء، فإثارة أى موضوع مما يهتم به من الناحية الإنسانية كان كفيلا ببساطة أن ينجيهم من الموضوع المتفجر عن تربية وتهذيب الأطفال وأن يتيح للرجل العجوز الشعور بأنه وجد أخيراً من يقدر ما أنجزه من أعمال.

وأنا وأنت نعلم أن موقفاً كهذا ليس حادثاً جليلاً فى العلاقات الدولية المتأزمة، ومع ذلك فهو الخلاصة لمواقف متشابهة تكون الجزء الغالب فى حياتنا. فإذا استطعت أن تفكر فى مثل هذه المواقف مقدماً ثم تتصرف وتتحدث بحذق عادى أمكنك أن تزيد من ذكائك الاجتماعى للدرجة التى تزيد كثيراً من سعادتك وسعادة كل من تتصل حياتهم بك.

القاعدة رقم ١

إن كلمة السر هى التفاصيل. فوجه إلى التفاصيل انتباهاً وثيقاً. وإذا كنت تريد أن تكون أشد ذكاءً كطيار اختبار أو جراح أو سائق سيارة أو صاحب حانوت أو زوج أو زوجة فوجه انتباهاً وثيقاً لتفاصيل ما تحاول أن تفعله. وقبل أن تتصرف تصور مقدماً ما أنت بسبيله. فالذكاء فى التصرف يكون بالسيطرة على التفاصيل والتحكم فيها.

ولقد سمعت أناساً يقولون: إنهم لا صبر لهم على التفاصيل وأنا أرثى لهم، لأنهم يفصحون عن ضجر بالحياة. فالحياة كلها تفاصيل والعيش كله تفاصيل. فالإنسان لا يستطيع إلا أن يأخذ نفساً واحداً فى الشهيق فى المرة الواحدة، والأكسجين اللازم له فى مدى ثمان وأربعين ساعة أو فى حياته كلها لا يمكن اختزانه فى صهريج ليؤخذ فى جرعة واحدة من التنفس. وروح الفنون وجوهرها، ومن ضمنها فن الحياة، هو لمسة الصانع الزائدة، وحب التفاصيل، والحب الأكيد للحقيقة والواقع من أجل الحقيقة والواقع ومن أجل ممارسة الحقيقة والواقع بدرجة أقوى.

فالسيطرة على التفاصيل أول خطوة فى زيادة ذكائك الفعال. فمثل طيارنا الاختبارى ومثل أى جراح كفاء، يمكنك أن تتصور مقدماً بالضبط ما يجب أن تفعله أو تقوله فى كل موقف يحتمل أن يقوم. فبمثل هذا الاستعداد تكون أقوالك وأفعالك فى مستوى أعلى من الذكاء حسب مستوى الاستعداد.

وأغلب الناس يظهرون الذكاء فى التصرف فى الأحيان، ولكنهم شأنهم شأن الشخصية الموجودة فى رواية الشاعر الفرنسى موليير التى دهشت لاكتشافها أنها كانت تتكلم الشعر طوال حياتها، كذلك شأنهم حينما يدركون إلى أى مدى من الإحسان وصلوا. فالزوجة المشغولة التى تصنف الملابس المتسخة قبل وضعها فى الغسالة تظهر ذكاء فعلا برغم أن رأسها ملئ بكثير من الأشياء الأخرى. فوضعها الملابس البيضاء مع بعضها أمر بديهي بالنسبة لها، ولكن لأنها لا تعرف الأوقات التى تتصرف فيها بذكاء فهى تفشل فى إدراك أنها فى أحيان أخرى تتصرف بغباء خطر.

خذ مثلا السيدة جلاديس. ب. فقد كانت من ذلك النوع الصلب ثابت الأقدام لدرجة يستحيل معها احتمال أن تفقد صوابها فى أية حادثة مفاجئة. فعندما قرأت البرقية الصغراء الواردة من وزارة الحربية وفيها أنها تأسف لإبلاغها أن زوجها قد قتل أثناء القتال أصابها الهم والكآبة، وهذا أمر معقول فماذا عن خططها للمستقبل وقد اجتثت من الجذور، وطفل فى الثالثة من عمره يجب الإنفاق عليه، وهى فى نفس الوقت لا تجيد حرفة أو صناعة تعيش منها. ولكن جلاديس لم تكن من ذلك النوع الذى يقتله الأسى لنفسه ما كانت لتتساءل لماذا تحدث لها هذه النكبة. فحتى الحزن والحداد كانا بالنسبة لها ترفاً لا تقدر عليه. ولذلك وضعت ابنها فى مدرسة حضانة نهارية، ودفنت حزنها فى الدراسة فى كلية لإدارة الأعمال وعملت على أن تحسن مسك الدفاتر والاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة.

ولكن ماذا تستطيع أن تفعل بعد أن تخرجت؟ فطفلها فى حاجة إلى رعايتها، فصممت على ألا تقبل عملاً يشغلها طوال اليوم، فمطالب ابنها يجب أن تحظى بالأولية. ولكن كيف تحل هذه المشكلة؟

وبعد استعراض الموقف، توصلت إلى حل ذكى. فصممت على أن تعمل سمسارة عقارات. وقد وجدت وظيفة للعمل بعض الوقت كسكرتيرة ومديرة مكتب لأحد سمسارة العقارات، وبدأت تتعلم المهنة. ثم حصلت على رخصة تبيح لها مزاوله المهنة، وبعد مرور عامين من تلقيها تلك البرقية التى تحطم القلوب استطاعت أن تعول نفسها وطفلها وأن تجد فى الحياة جديداً يثير اهتمامها.

هذا هو طراز تلك السيدة. لم يكن أحد يتصور أن تفقد صوابها فى حادثة مفاجئة. ولكن كارثة أخرى وقعت. وفى هذه المرة لم تكن تدرى ما تفعل. فقد تحطمت. ومرضت وارتبكت واختلط عليها الأمر فلا تستطيع التفكير. وهذا ما دفعها لزيارتى.

وما حدث لها كان على النحو التالي. فبعد أن ظلت تعمل لمدة عامين تزوجت للمرة الثانية. وسار كل شيء في البداية على ما يرام. وكان من أحسن الأشياء في زوجها الجديد هو العلاقة التي أقامها زوجها مع طفلها. فقد ارتبطا ببعض بشكل بديع. ولكن بعد مضي عامين ونصف العام من زواجها اكتشفت أن زوجها مقامر وكذاب ولص. وكانت هناك معركة حامية في الأسرة أسهم فيها أصهارها بنصيبهم من الصراخ، ووعد الزوج بألا يعود إلى القمار.

ولكن هذه لم تكن النهاية. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير من مقامر تحدث إليها تليفونياً. وقد هدد بالقضاء على حياة زوجها إن لم يسد خمسة آلاف دولار كتب بها الزوج صكاً على نفسه وفاء لدين أتى من المقامرة. وحدث هذا بعد ستة أشهر من وعد الزوج بأمانة وإخلاص ألا يعود.

فهل تقوم بإبلاغ الشرطة؟ وهل من الواجب عليها أن تواجه زوجها بهذا الدليل الجديد على الغدر والخيانة ونكث العهود؟ وهل لزاماً عليها أن تخرج من هذه الأوحال؟ ولو فعلت لكان عليها أن تنشيء بيتاً جديداً وأن تعود للعمل وما تأثير ذلك على الطفل الذي أصبح الآن عمره ثماني سنوات؟ وهو يعبد والده الجديد، وهو الوالد الذي لا يعرف أباً سواه.

ولكى أحدد الوقائع في ذهني فقد استعدت مرة أخرى تسلسل الحوادث وها هي ذى كما دونتها في مذكراتي:

«والآن ساعديني على تصحيح الوقائع. فبعد أن أنهيت دراستك في المعهد التجاري عملت في مكتب السمسة لمدة عامين؟».

○ حوالى ذلك. فهما عامان وشهران بالضبط. هل تسمح لي بالتدخين؟

○ ثم قابلت زوجك الحال؟

○ ذلك عندما تزوجته. فقد تعارفنا لمدة ستة أشهر فوالده صاحب شركة «ب» للإدارة. وهم يملكون ويبيعون ويشتررون ويرعون الشقق المفروشة ومباني الشركات والمكاتب. وعملهم كبير. وزوجي شريك فيه. وهأنذا أصرح لك بكل شيء، فكم أود أن أدق عنقه.

○ ومنذ ستة أشهر مضت اكتشفت أن زوجك قد قامر بثمانية عشر ألف دولار من أموال الشركة التي هو عضو فيها؟

○ انظر إن يدي تبكى بالعرق. فهل في أي جزء من جسمي شيء مريض؟ وهل هذا العرق الزائد شيء عادي؟ وفضلاً عن ذلك فأنا أحس بالمرض.

○ إنها جزء من رد الفعل العام للإنهاك الذى تعانينه. وعضلاتك متوترة أيضاً. وأكتافك مرفوعة هي الأخرى. وذراعاك ممدودان فى توتر. والتواء. فقاطعتنى: ألا تستطيع أن تدرِك أننى أحاول أن أقاوم التحطم؟ فإن لم أفعل..

○ نعم. إننى أدرك. إننى فقط أحاول أن أقول إن كل ردود الفعل العضلية عندك بما فى ذلك يداك المبتلتان بالمرق هي جزء من استجابتك العامة للمحنة. وكنت أسألك عما حدث منذ ستة أشهر مضت.

○ آه. لقد تشاجر كاتب الحسابات مع زوجى، فأخذت عمل الكاتب فأنا أعرف هذا العمل. ثم رأى والد زوجى - وهو أرق إنسان أعرفه وإنى لأسفة له فى هذه الورطة - رأى أن يستدعى أحد المحاسبين للمراجعة. فقد اشتم رائحة شيء خطأ. وعاونت أنا أيضاً فى المراجعة. فكانت هناك ثمانية عشر ألف دولار ضائعة. وفكرنا فى بادئ الأمر أن كاتب الحسابات قد سرق المبلغ ولكن بالمراجعة الدقيقة التفصيلية اكتشفنا أن زوجى قد جمع إيجارات بعضها يخص بعض الزبائن وصرف الصكوك وقامر بالنقود، لقد ثار الصراخ والضجر. ياله من أمر بشع مفزع! وأصيبت حماتى بنوبة قلبية. ولامونى على عدم مراقبة زوجى بدقة. ولكن لا أستطيع أن أدير البيت وأسير وراءه لأتعبه كرجال المباحث. فضلاً عن أنه يكره أن يوجه إليه أسئلة أين كان وماذا يفعل.

وساد الصمت لحظة ثم قالت:

○ إننى لا أدرى ماذا أفعل. ما الذى يجب على عمله يا دكتور؟

○ ماذا حدث إذًا؟

○ إذًا؟ أوه. لقد وعد بالأ يعود إلى ذلك ثانية. وصدقه أبواه، إنها الأمانى على ما أظن. وباع أبوه بعض ما يملك - وكان خارج نطاق الشركة فقد كانت شركة تضامن - وأعاد الثمانية عشر ألف دولار. وكنا ننوى بناء منزل، فلم يكن لى قط منزل مملوك، ولكن انتهى الأمر الآن.

○ ثم ماذا؟

○ لقد كنت أقتلب على الإبر خلال ستة الأشهر الماضية. كنت أحس بأن هناك شيئاً أعوج ولكنى كنت أخشى أن أثقل عليه بالأسئلة، فقد كان يقول إننى أثير الشجار بعنادى. ثم حدث هذا. فالآن يوجد اثنان وثلاثون ألف دولار مفقودة، وذلك بعد أن وعد زوجى بالتوبة النصوح. وأغلب هذه النقود من أموال الزبائن. ففي البداية ثمانية عشر ألفاً والآن اثنان وثلاثون. فإن لم يساعده أبوه للمرة الثانية فسيذهب إلى السجن. ولا أدرى إن كان ذلك يعنينى

فى شىء. إننى لا أدرى بنفسى. وأنا أعلم أننى يجب ألا أتكلم بهذه الصورة. ولكنى فقدت الإحساس بكل شىء. إننى أشعر بالموت فى باطنى. فأنا لا أستطيع أن أنام أو أفكر، ولا أدرى ماذا أفعل.

هنا موقف يتطلب الذكاء. ولكن ضباباً من العاطفة والشعور قد غام على بصرها وحال بينها وبين فاعلية ذكائها. إنها لا تستطيع أن ترى الموقف فى أبعاده الحقيقية. ولكى نعيد لذكائها فاعليته كان علينا أولاً أن نواجه حقيقة مشاعرها. فقلت لها:

○ لنتخذ موقف المواجهة الصريحة. فما هو ذلك الشىء الذى لا تريدين التفكير فيه.

إنها تكره أن تفكر فى الطلاق. فقد كان الطلاق يعنى من بين أشياء كثيرة ضرورة اللجوء إلى المحكمة. وكان يعنى الاحتكاك والعداء السافر. كما كان يعنى أن تجد مكاناً تعيش فيه ومعها ابنها وكل الفوضى واختلاط الأمور التى يقتضيها التحرك، وكان يعنى أن تجد عملاً وأن تبدأ من جديد فسألتها:

○ وماذا أيضاً؟

إنها تشعر بالحنق. فبينما يؤكد لها زوجها أن كل شىء على ما يرام، كان يقامر بمستقبلهم من وراء ظهرها. وقد قالت:

○ يبدو أن كل فرد كان يعلم بما يدور إلا أنا. إننى أشعر بأننى كنت مغفلة. وفى الليلة الماضية وحينما كنت أمسك بالسكين لأقطع اللحم راودتنى الفكرة فى أن أقتله، لقد ضاع كل ما بنيته فى الأعوام الثلاثة الماضية. فكل جهودى ومحاولاتى لكى أجعل زواجنا ناجحاً وأدفع أعمالنا فى طريق التقدم قد ضاعت على مائدة القمار. وهذا ما لا أحب التفكير فيه.

○ أى شىء آخر؟

وراقبتها بدقة لأتأكد من فهم ما تشعر به. وقد ترددت مدة طويلة قبل أن تجيب، ثم قالت بعد برهة.

○ لست متأكدة إذا كنت مازلت أحبه. فى بعض الأحيان لا أتحمل أن أراه، إنه كما ترى لا يدرى الصواب من الخطأ. فكيف أعيش مع رجل كهذا؟!

فلمحت لها: لقد كان فى وقت ما يعنى شيئاً بالنسبة لك وإلا لما تزوجته إطلاقاً، فأجابت: إننى لا أدرى ما هو هذا الشىء الآن. فلست على يقين من شعورى نحوه، إننى لا أستطيع التحدث إليك بالغضب الذى يثيره هو فى نفسى. إن الأمور تختلط على الآن. وفى الواقع أنا لا أدرى ما أشعر به نحوه. ولهذا أنا لا أدرى ما أصنع.

إن بداية السلوك والتصرف الذكي هو إخراج الشاعر إلى العراء وفحصها واحدة واحدة.
فبمجرد أن فعلت جلاديس. ب. ذلك بدأ الضباب ينقشع. وبدأت ترى ما فى
مقدورها عمله.

فمن ناحية الزواج أعطيتها نصيحة مباشرة. فأبلغتها بأنها طالما لا تستطيع تحديد مشاعرها
بالنسبة لزوجها فلتترك الموقف معلقاً لمدة عام قبل أن تتخذ قراراً حاسماً. وسلمنا نحن الاثنین
بأن الموقف فى هذه اللحظة يبدو حالكاً ولكن الحقيقة هى أن الناس تتغير. فربما يتغير زوجها.
أما بالنسبة للفترة الحالية فالتصرف الذكى فى مثل هذا الموقف هو الترقب والانتظار.

ولكن الترقب انتظاراً لما يحدث لم يكن كافياً بالنسبة لها. فقد أصرت على أن زوجها يجب
أن يزور طبيباً نفسياً. وقد أكد الطبيب النفسى التشخيص الذى قالت به وهو أن زوجها
لا يدرى الصواب من الخطأ. وقد وصف الحالة بأنها من «الشخصية السيكوباتية». وقد وافق
السيد «ب» على أن يستسلم للعلاج.

لقد قالت جلاديس. ب. إن ثلاثة أعوام من حياتها قد ضاعت واعتبرت أن زوجها هو
المسئول عن ذلك.

إن الحكم على المكسب أو الخسارة فى الحياة والعمر لا يقاس بما حققه الفرد موضوعياً ولكن
بكيف ونوع التجارب والخبرة التى مارسها. وفى الواقع فإن جلاديس. ب. لم تضيع هذه
السنوات الثلاث. فقد عاشت هى وابنها فى راحة تنعم فيها بالطعام الطيب والملابس الجيدة
والفراش الوثير النظيف ومكان آمن ترقد فيه إذا جن الليل - وهذا ما يعادل أكثر من تسعة
أعشار ما يطلبه سكان العالم. ولقد استغلت فرصتها الثقافية، فتعلمت كيف تتأق فى ملابسها
الجذابة، وكيف تقيم الحفلات وكيف تلتقى بالناس فى يسر وتلطف. كما تعلمت الكثير عن
الاتجار بالعقارات، وفى الواقع قد نجحت فى امتحانات تبيح لها ممارسة المهنة. وقد قامت
بعدة اتصالات عمل ناجحة وذات قيمة. كما أنها تعلمت الكثير من خبرتها بالزواج وإن كانت
خبرة لا تسر. وقد قالت:

- أظن أنك ستقول: إن كل ذلك قد قدم إلى فى طبق من فضة!

فأجبتها: كلا. فقد وصلت إلى ما حصلت عليه بجهدك واجتهادك. وأنا لا أحاول أن أعطك
حقلك. ولكن كل ما أسأله هو هل تستطيعين القول بأن أعوامك الثلاثة فى الزواج قد ضاعت عبثاً.
إنها بدأت ترى مشكلتها وتحدها فى وضوح - وهذا أول خطوة للذكاء الفعال.

ولكن كيف تستطيع أن تتحمل العيش مع رجل لم تعد تثق فيه أو تحترمه؟ كانت هذه
مشكلة كبيرة وكنت فى حيرة كيف ستعالجها هى.

وفى زيارتها التالية لى تدارسنا بإسهاب أضرار الطلاق. فأول نقطة أنها كانت تميل إلى زوجها. فقد كانت ميولهما مشتركة وكانا يقرآن ويناقدان نفس الكتب ويستمتعان بنفس النوع من الروايات السينمائية كما أنهما كانا يتقاسمان أصدقاء بعضهما. ثم كان هناك عالم الموسيقى. فقد درست هى الكمان وكان هو يحلل لها السيمفونيات بطريقة جعلتها لأول مرة فى حياتها تفهم ما تسمع. وفضلا عن ذلك فقد كان يحب النظافة لدرجة المبالغة وكان جذاباً بصفة عامة. وقد قالت:

○ إننى لا أحب الانفصال عنه. فابننا يحبه جداً. ولكنى أكاد أموت من القلق إذا غاب عن عيني. فكيف بى أن أدرى إذا ما ظل يجمع الإيجار ويقامر به؟ إنك لا تستطيع أن تثق فى أى كلمة يقولها.

وفى نفس الوقت استمر فى زيارة الطبيب النفسى واستمرت أنا فى الأمل ألا يتفجر الموقف فى وجهى. فهل كان هناك تحسن فى حالة جلاديس؟ فلم يكن ذلك بادياً للعين المجردة. ولكن فى يوم من الأيام أتت إلى بهذا النبأ السار.

○ إننى أتعلم كيف أسترخى.

وقد تغير التعبير الذى كان يبدو على وجهها، إنها تبدو إنساناً آخر. ومن الواضح أنها وصلت إلى قرار هام، فسألتها:

○ ماذا حدث؟

وبدل أن تجيب سألتنى:

○ هل استطعت أن تحدث تغييراً فى أحد. أعنى تغييراً حقيقياً واقعياً صادقاً؟

فأحسست أنها لا تسأل لمجرد العلم ولكنها كانت تعد نفسها لتقول لى شيئاً فما هو؟

○ لعلك وصلت إلى قرار فيما يختص بزواجك.

فاضطجعت على كرسيها وأجابت:

○ نعم. فبعد أن تركت عيادتك حاولت أن أفكر فى الموضوع. فقد كنت أعصر ذهنى باستمرار للوصول إلى طريقة أحاول بها تغييره، فوصلت إلى قرار بأن ذلك ليس فى الإمكان. وكاد هذا يقتلنى. فقررت أن أدعه هو ووالده ليحلا مشاكلهما دون تدخل منى. فهما بالغان راشدان. فليحلا مشاكلهما بالطريقة التى يريدانها وسأحاول أن أتمشى بقدر الإمكان مع ما يسيران فيه. أما من ناحية السرقة والمقامرة والكذب من جانبه فقد تركتها لزوجى وطبيبه النفسى. فإذا كان زوجى يريد أن يتغير فسيغير قطعاً. ومن الآن فصاعداً لن أفضى الأيام أفكر فيما هو صانع.

فالحياة قصيرة جداً. أتدرى ماذا حدث؟ فمنذ أن اتخذت هذا القرار شعرت بالتحسن. إننى لا أشعر الآن بالرغبة فى تحطيم رأسه كلما فكرت فى المنزل الذى كان سيصبح لنا.

○ هل يعنى هذا أنك أصبحت لا تكثرئين به، وأنه لا يعينك ما يحدث لرابطتكما الزوجية؟

○ أوه. كلا. إننى حينما أبدأ شيئاً فإننى أصمم على أن أنجح فيه. ولكن ما أعنيه فقط هو أننى أبذل غاية جهدى. أما الباقي فمتروك له. وقد أخذت لنفسى منزلين أجمع إيجارهما وأحاول أن أرضى السكان - ونحن نستطيع العيش بما أكسب. أما ما يكسبه زوجى فيمكنه أن يسد لوالده دينه أو يقامر به أو يفعل به ما يريد. فمن الآن فصاعداً فالأمر متروك له. وسأتحمل العيش مع كل ما يفعل لمدة عام. وسنرى ما يحدث أثناء هذه الفترة. أما الآن فليس عندى ما أقلق من أجله. وبدأت أستعيد ذلك الشعور الذى كنت أحس به قبل أن يربكنى القلق عما سيفعل. ألا تظن أننى قد وصلت إلى حل ذكى؟

فأجبت: إن الأمر يتوقف على ما تحاولين أن تصلى إليه؟

○ حسناً. إننى أحاول أن أعين زوجى على أن يسير فى طريق التحسن. ولا أريد أن أضغط عليه بأكثر من اللازم. فإذا غير من نفسه فقد أحسن. وإن لم يفعل فسأهتم بأمرى وأمر ابنى دون معونة منه. وسأعطيه فرصة سنة، وعلى هذا أضع نفسى فى موقف يتيح لى أن أعول ابنى مهما ساءت الأحوال إننى لا أريد الطلاق. ولكن إذا وصلت الأمور إلى ذلك الحد فسيكون فى مقدورى أن أتحمّلها. وفى نفس الوقت أحاول أن أجعل جو البيت سعيداً وأن أجعل كل إنسان راضياً. فهذا ما أحاول إنجازه. وأنا أسألك رأيك فيما إذا كان ما سأقوم به تصرفاً ذكياً.

أما بالنسبة لها فالجواب بالإيجاب. أما غيرها من النساء فربما فكرن فى طرق أخرى لمعالجة نفس الموقف، وكل حل يضاف إليه يحتمل أن يكون صالحاً بالنسبة لحالة كل منهن. ولكن جلاديس بذلت قصارى جهدها فيما لديها وقد وجدت راحة البال والصحة الطيبة فى فعل ما يتفق وطبيعتها الذاتية. واستعادت استقرارها العقلى وقدرتها على إسعاد نفسها وذلك بالاستفادة من ذكائها.

وهذا يجرنا ثانية إلى موضوع الأسلوب الذى نستطيع به أن نجعل الذكاء فعالاً. وإنى لأجد ما يبعث على الأمل فى إدراك الحقيقة فى أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن ينمى ذكائه بالتفكير إنذ نعيش فى كون يتزايد فى الاتساع. وبالتفكير المبدع الخلاق يزيد الإنسان من اتساع هذا الكون.

والخطوة الأولى فى وضع الذكاء موضع العمل والتصرف والتنفيذ هو أن تحدد المشكلة وتواجهها.

فإن طيار الاختبار جورج لم يفعل ذلك مطلقاً، إنه لم يسأل إطلاقاً ما دعاه أن يكون طياراً مستهتراً، وقد حمل هذا السر معه إلى قبره فمن يدري ماذا كانت مطالبه الباطنية التي جعلته يجرى وراء الموت حتى يقابله فما الذى كان يريد إثباته بذلك؟ ومن ذا الذى كان يريد التأثير فيه وعليه؟

فنحن فى قرارة نفوسنا تدفعنا نوازع ومطالب من اللاوعى أو العقل الباطن فجلاديس. ب. كانت تكره أن تسلّم بأنها أخطأت حينما أُقبلت على الزواج. وكرهت أن تعترف لنفسها بأن زوجها كان يختلف جداً عما ظنته أن يكون وعما أرادت له أن يكون. كما أنها لم ترغب فى أن تقف وجهاً لوجه أمام نتائج الخطأ الذى ارتكبته. وكذلك يفعل كل الناس. لقد كان من الصعب عليها أن تعترف بالفشل فى جهودها لتشكيله فى الصورة القريبة مما يهوى قلبها. وأغلب الناس لا يدركون أنهم يظنون فى أنفسهم القدرة على التأثير فى الآخرين كما يفعل الخزاف فى تشكيل الطين. وتكون صدمة بالنسبة لهم حينما يُكرهون على التسليم بقصورهم عن تشكيل حياة الآخرين.

ولكن هذا النوع من الإدراك هو المطلوب بالضبط إذا أراد المرء أن يرى موقفه كلاً فى تمامه وأن يحدده بوضوح. فالواجب عليه أن يرى نفسه كقطعة أو جزء من الموقف وأن يرى نفسه على حقيقتها. أما أن يرى النواحي البارزة فقط من المشكلة فهذا لا يكفى. فلكى يزيد من ذكائه الفعّال ويجعله يعمل فى حل مشاكله يحتاج أولاً وقبل كل شىء إلى البصيرة النفسية.

وقد حدث أن رجلاً من رجال الأعمال الناجحين جداً وكان فى أوائل الأربعينات من عمره، كان يسرف فى شرب الخمر بما يضر بصحته وفى نفس الوقت كان ينفق أكثر مما يكسب. وظل مسلكه لمدة عامين موضع القلق المتزايد بالنسبة لأسرته وأصدقائه، وظل إسرافه فى الخمر والإنفاق يتزايد سوءاً شهراً عن شهر.

وقد أراد أن يواجه مشكلته بذكاء. فهل يا ترى يذهب إلى المصحّة ويترك أعماله فى يد أحد العملاء؟ أم أنه كاد يفقد عقله. وقد أجاب بعض أقرابه بالإيجاب بالنسبة للسؤال الأول. وطلبوا منه أن يحزم أمره ويتشجع ويفعل ما يشيرون به. أما غيرهم فقد كانوا قلقين من ناحية حالته العقلية وكانوا يتكلمون بخصوص مستشفى للأمراض العقلية والراحة الطويلة والتخلى عن المسؤوليات وما شابهها. فلم يدر ماذا يفكر أو يصنع.

إن أى طبيب نفسى حاذق كان يستطيع أن يقرر أنه ليس فريسة للكحول وأنه ليس هناك من خطر على قواه العقلية. إن مشكلته الحقيقية تقع فى ميدان آخر، ميدان آخر من حياته لا يريد أن يفحصه.

فقد كان شريكاً موصياً مع خمسة من إخوته الذين يكبرونه فى السن، وكان كل واحد منهم يرتبط ارتباطاً أخوياً وثيقاً بإخوته. وكما يحدث فى بعض الأحيان فى مثل هذه الروابط العائلية الوثيقة، كان كل قرار يرتبط بالعمل يعرض على مجلس الأسرة. ففى العمل كل واحد منهم يتنسم رغبات الآخرين أو على الأقل هذا ما كان يبدو ليرضى هذا. ولكنه مع ذلك لم يكن يريد أن ينتقد إخوته الكبار لأنه كان يعلم أنهم يراعون مصلحته. كما أنه كان فى نفس الوقت من ذلك الطراز من الأشخاص الذى يكون فى أحسن حالات العمل إذا لم يكن خاضعاً للمراقبة الدقيقة. وكان هذا يضايقه أكثر مما كان هو على استعداد للاعتراف به.

وكانت النتيجة، أنه عندما يصبح النقد أكثر ضيقة مما يجب أو أكثر إثارة للعناد كان يحاول أن يجد منه مناصاً فى شرب الخمر أو فى شراء سيارة جديدة، فقد كان عليه أن يصنع شيئاً يستطيع أن يمارس فيه رأيه الخاص بحرية دون قيد من أحد.

ولقد ورد على الكثير من هذا النوع من الشعور فى عملى كطبيب. فالشاب يتعاطى الدواء لأنه من بين الأشياء التى يريدتها. يريد أن يكون سيداً لنفسه. فالطبيب الشاب الطموح الذى ينزع إلى الفردية والتحرر من ربة الجماعة يتخرج من كلية الطب ليجد نفسه مرتبطاً بالعمل فى مستشفيات الدولة فيعجب لما يشعر به من عدم الرضاء. لا شك أن هناك بعض الأطباء الذين يتبوءون ويتواءمون مع العمل فى المستشفيات الحكومية ولا يشعرون بكثير من الغضاضة، والقليل منه قد يصل إلى درجة الحب لعمله. ولكن الآخرين إن عاجلاً أو آجلاً يصدقون فى حق أنفسهم (وتنمو فيهم البصيرة النفسية) فينزعون إلى العمل الخاص، وأنا أقول لهم كلما أسرعتم فى ذلك كان ذلك خيراً للجميع.

وهاهو ذا مريض من ذلك النوع من الفردية الخشنة. وبالتأكيد فإنه ليس جرماً فى هذه البلاد (أمريكا) فى حق أحد أن يرغب المرء فى إدارة عمل خاص به. ويحتمل أنه ينجح فى جو المؤسسات الكبيرة الذى لا يتسم بالطابع الشخصى والذى يكون فيه توزيع السلطة أقل غموضاً، ولكنى أشك فى ذلك. فمثل ما يحدث ليكانيكى السيارات الذى يرفض الاستقرار والأمن فى عمل طيب فى شركة سيارات ويفضل أن يفتح ورشة صغيرة للإصلاح. فقد اكتشف مريضى أخيراً أنه سيكون أكثر أمناً وأشد حماساً للعمل لو أنه استقل بإدارة عمل خاص به.

واجتمع مجلس الأسرة ووافق على هذا القرار. ولم تكن هناك حاجة للبت فى موضوع الكحول أو فقده لعقله. فلم تعد تلك المشكلة قائمة.

والأمر يتلخص فى هذا: إن الوصول إلى درجة كافية من البصيرة النفسية هو أول خطوة نحو الذكاء الفعال.

إن الإنسان المستهتر فى طعامه أو شرابه لا يقلع عن غيه بسلاطة اللسان معه وكذلك الرجل المستهتر فى قيادة سيارته. فهم يأكلون أو يشربون أو يقودون باستهتار لإرضاء مطلب كائن فى اللاوعى أو اللاشعور ومن المحتم تحديده بوضوح ومواجهته قبل أن يكون فى الإمكان التصرف الذكى. فإن مطالب اللاوعى أو العقل الباطن تلبد بغيوم التفكير الموضوعى.

ولكن لنفترض أن المرء قد استطاع فعلا أن يصل إلى درجة معقولة من الموضوعية فى التفكير وأن يرى (إلى حد كبير) نفسه على حقيقتها. فما الذى يفعله بعد ذلك؟ إنه يحدد هدفه.

فيسأل نفسه ماذا يحاول أن يصنع بالضبط؟ إن الناس السعداء هم الأناس الواقعيون. إنهم لا يضعون لأنفسهم أهدافاً وغايات وهمية ليس فى الإمكان تحقيقها، كما أنهم — وهو الأهم — لا يحاولون الوصول إلى هدفين متعارضين فى نفس الوقت.

خذ مثلاً ذلك السائق المستهتر. لقد جافته الحكمة بالنسبة لنفسه. إنه لم يواجه بأمانة السؤال الذى يقول: ما الذى أحاول أن أفعله؟ وبصرف النظر عن تقديره العالى فى اختبار الذكاء فإنه سائق غير ذكى.

عندما يكون إنسان ما غير راض عن الطريقة التى يعالج بها موقفاً من المواقف ويسأل نفسه عما يحاول أن يفعل بالضبط، فإنه سيكتشف أنه إنما كان يحاول أن يصيب عدة طيور بحجر واحد. إن للإنسان أسباباً كثيرة لعمل أى شئ، يقوم بعمله. إن المحفزات والدوافع دائماً متعددة. ففي هذه الأيام مثلاً نادراً ما يخرج إنسان للصيد لكى يحصل على طعامه فحسب. فإذا كان ما يريد هو البط فقط فحسبه أن يذهب إلى أقرب محل قصاب ليحصل على زوج طيب منها. وقد أحسن ذبحه وتنظيفه وإعداده للفرن. ولكن صياد هذه الأيام يريد شيئاً أهم عنده بكثير من البط فربما كان يرغب فى رؤية شروق الشمس وقد جعلت السماء وضاءة فوق ضباب البحيرة. وربما كان يرغب فى قليل من الهدوء والسلام فى أحضان الطبيعة. وربما كان يريد أن يهرب ولو لفترة من تلك المسئوليات والمشاكل الملحة التى ترمز إليها حلاقة الذقن اليومية الدقيقة. وربما كان يرغب فى صحبة نفر من الأصدقاء الذين يتواصلون دون كثير من التثرتة. ثم هناك الكبرياء الذى يظل من فوق كتفه. فربما كان يرغب فى إثبات أنه برغم العدسات المزوجة على بندقيته فباستطاعته أن يستمر فى الصيد مع أحسن الرفاق الصغار.

فكل ما نفعله يسير حسب هذه الوتيرة: عمل واحد أو نشاط مفرد لكى يرى العديد من المطالب. وهذا ما نسميه بعبداً الدافع المتعدد.

ولكن أنى لنا أن نعرف ما نستهدفه من غايات إذا كان همتنا أن نصيب هذا العدد العديد من الطيور بحجر واحد! فإذا كان النشاط المفرد موجهاً للعديد من الأهداف فكيف يتأتى لنا أن ندرك ما نحاول في الحقيقة والواقع أن نفعله؟ وكيف يتأتى لنا أن نحدد أهدافنا؟

والجواب فى غاية البساطة بمجرد أن تفكر فيه. فحاجات الإنسان ومطالبه تختلف فى درجة الإلحاح والأهمية بينما تدرج دوافعه بين الضعيف جداً والقوى جداً.

سل نفسك إذا ما هى مطالبك التى تحظى بالأولوية؟ وما التى يأتى بعدها؟ وما التى يمكن وضعها فى المقام الثالث؟ فالإنسان الذى يعمل فى حديقته ليجمل بيته ويستمتع بالتدريب يعتبر أنه قد حصل على الجائزة الأولى والثانية. فهل بأسى بعد ذلك لأن أزهاره لم تحصل على الشريط الأزرق فى معرض الزهور؟

لا بد من الوصول إلى ما تستهدفه إن عاجلاً أو آجلاً. فاحرص على أن تحدد أهدافك وأنت مُفتَّح العينين.

فإذا فصلت أهدافك وغاياتك الأولية وحددتها وجمعتها دائماً نصب عينيك فمن المحتم أن أداءك سيكون متمسماً بذكاء أكثر.

فبعض الناس يضعون كلمة «فكر» فى إطار ويعلقونها فى مكان يرونها منه فى كل يوم. ولكن أى شىء يفكرون فيه يا ترى؟ فالرجل الذى رأته فى المستشفى بعد حادثة سيارته لم يقبل فى التفكير. فقد فكر فقط فيما هو ذاهب إليه ولم يمر بخاطره قط أنه كان يستهدف غرفة فى الدور الثالث فى المستشفى. ولكنه فكر أيضاً أنه أحد كبار الخارجيين على القانون الذى يتحدى صاحب مزرعة معزولة. وقد ركب إليه فى مائتين وخمسة وثلاثين من الخيل تحت غطاء محرك سيارته. فقد كان يفكر فى تحدى السلطة. ولم يكن هناك شريف أو عمدة من أولئك القدامى الذين كانوا يحملون علامة معدنية ليخبره ما يمكن أن يعمل. إنه يستطيع أن يتخطى أى سيارة فى الطريق ثم... «أى أنا».

فتحديدك لأهدافك وأغراضك بوضوح يساعدك فى اتخاذ القرارات الصائبة السليمة دون مجهود. وقد يكون هناك مجال للخيار. فربما تفضل الذهاب إلى ملعب الكرة بدل أن تعود بعد الظهر إلى المكتب. وربما تحب أن تشتري أسهماً فى منجم يورانيوم. أو ربما تريد أن تخرج تلك الملاحظة اللاذعة القائمة على طرف لسانك. ولكن لا شىء من هذه الإغراءات يتفق مع أكثر أهدافك أهمية وعلى ذلك تمسك بالتليفون لتقول «ممنوع البيع» وليكن ما يكون. فالأهداف المشوشة أو غير الواضحة تؤدى إلى قرارات ضعيفة عاجزة وإلى التوتر العصبى. فتحديد أغراضك وأهدافك وإعطاء كل واحد منها قيمته الحقيقية الواقعية يؤدى لصفاء عقلك.

إنه يفعل أكثر من ذلك. إنه يعدك لاكتساب المعارف والمهارات التى تلزمك لكى تضع ذكائك فى موضع العمل والتنفيذ والتصرف.

ومهما كانت مشكلتك فأنت فى حاجة إلى المهارة والمعلومات لتعينك على الوصول إلى حل ذكى. وقد تكون مشكلتك هى إصرارك لأن تعيش شخصاً صعب الخلق أو أن تتزياً بملابس أكثر تأنقاً وتتفق مع الموضة. وبعض الناس يرغب فى إقامة الحفلات دون أن يصيبه أى اضطراب، وغيرهم يرغبون فى زيادة ما يكسبون من النقود. فمهما كانت مشكلتك فليس من الممكن حلها بذكاء إلا باكتساب المعرفة والمهارة. ولا يمكن أن يشبع إنسان من هذين.

إنك تستطيع استعراض ذكائك باستعراض معرفتك ومهاراتك، فإذا كان تقديرك فى اختبار الذكاء هو ٢٠٠ فمن الممكن أن تموت جوعاً أو يتجمد بدنك إذا وضعت فى القطب الشمالى وليس معك أحد يعاونك إلا قليل من الأشخاص ذوى الذكاء المرتفع. ولكن ما إن يظهر أحد أبناء الإسكيمو الذين ليسوا على ذكاء وافر ومعهم أدواته وآلاته التى تعتبر من العصر الحجرى حتى يفهمك بسرعة تكفى لتجعلك أن تعيش. وقد يكون بطيء التعلم ولكنه قد يرهن ببقائه على قيد الحياة أن له من الذكاء ما يكفى لكى ينجح فى اختبارات لا تقوى عليها أنت، فقد تكون أنت على علم بأن المثلث متساوى الأضلاع زواياه متساوية وتساوى كلٌ منها ستين درجة ولكنه هو فى مقدوره أن يقول بمجرد النظر إن المياه المتجمدة أمامه مالحه وأنها تصلح للشرب. إنه يستعمل مهارته وعلمه فى حياته اليومية.

وعلى فكرة كم من المرات احتجت لاستعمال الجبر والهندسة التى تعلمتها بالدراسة الثانوية؟ فأغلب الاحتمال أنك نسيت أغلبها. إنما المهارة والمعرفة التى تتوصل إليها وأن تسير إلى أهدافك الخاصة هى التى تبقى لك. وبعكس التعليم الذى يفرض عليك فإن التعليم الذى يحصل أى معنى خاص بالنسبة لك يكون مثيراً ولذيذاً وقد يصل إلى درجة فائقة من الروعة وفى نفس الوقت سهل التذكر.

وفى إمكانك أن تستعين بالمقررات الدراسية بالانتساب أو المراسلة وبالكتب من نوع «عاون نفسك». وفى هذه الأيام لم يعد أى إنسان فى عزلة لا تسمح للتعليم أن يصل إليه. وكل ما هو مطلوب منه، هو أن يمد يده لكى تصل وتمسك بالأدوات التى تعينه على توسيع أفقه العقلى.

ولا تدع أولئك المثقفين المتعجرفين الذين يهزءون من كتب «عاون نفسك»، لا تدعهم يشبطون همك. فكتاب هنرى دافيد ثورو المسمى «والدن» وكتاب توماس أكيমبس «تقليد المسيح» من الكتب القيمة فى معاونة النفس. إنها تدلك على الطريقة التى تقضى بها وقتك وكيف توجه أفكارك. والواقع أن كل كتاب جيد مفيد فى معاونة النفس. فإذا كان كتاب ما لا يعاونك

بطريقة ماً على أن تعيش وتتصرف بذكاء فقد أضعت وقتك في قراءته. ومن ناحية أخرى فإن كنت قد استطعت اكتساب فكرة فريدة جديدة من كتاب ماً فقد نلت خير الجزاء من قراءته.

والهدف من اكتساب المزيد من المهارة والمعرفة هو أن تستعين بها لمواجهة المواقف الجديدة بطريقة أكثر حسماً وفاعلية بالنسبة لما حددته لنفسك من أغراض وغايات. ولكن لكي تفعل ذلك من الواجب عليك أن تواجه المواقف في منتصف الطريق. فالعيش بذكاء يقتضى بعد النظر. إنك تنتظر من جراحك الذكاء الفعال وإنك لتجده. لماذا؟ فليس السبب هو أنه يعلم مقدماً وبالضبط الظروف التي سيواجهها عندما يفحص بطنك فليس هناك جراح في العالم يستطيع أن يفعل ذلك. ولكنه قد تمرن بالتكرار ومقدماً على كل ما يجب عمله بالضبط في كل موقف يمكن تصوره. وتكون النتيجة أنه مهما كان الموقف الذى يواجهه فإن مهارته ومعرفته التى حصل عليها جزءاً جزءاً تساعده في معالجة الموقف. إنه مثل طيار الاختبار الذى فكر مقدماً فيما يجب عليه بالضبط في جميع مواقف الطيران التى يمكن تخيلها.

القاعدة رقم ٢

إذا كان لديك مشكلة مع أختك أو والدتك أو زوجتك فقف وتأمل ما الذى تحاول أن تفعله بالضبط في هذه الرابطة؟ بالطبع أشياء كثيرة. اكتبها فى قائمة مرتبة حسب أهميتها. والآن تخيل المواقف المختلفة التى يمكن أن تقوم وفكر فى أحسن ما يمكن عمله فى كل موقف. وباستمرارك فى عمل ذلك يوماً بعد يوم تلتقط شذرات من المعلومات وتجننى من المهارات ما يعاونك على أن تعالج أدق المواقف بحذق وذكاء. وسيشعر الجميع بالعرفان لذلك وجهازك العصبى ليس أقلهم فى هذا الشأن.

٣

إن حالة هارى . و . من الصعب تصديقها ولكنها حدثت فى الواقع. فقد بدأ هارى من لا شىء ووصل إلى الإنجازات الآتية:

١ - تزوج فتاة جذابة نشيطة وعاقلة فكانت الزوجة الوفية له والأم المثالية. وكان لهما أربعة أطفال أصحاء سعداء متلائمون مع بيتهم أحسن الملاءمة ولم يكن هذا ليحدث عفواً فلا شىء يحدث عفواً إلا إذا حركه إنسان. فهؤلاء الأطفال كانوا شهادة تقدير لوالديهما معاً.

٢ - جمع عقاراً يدر له دخلاً ولا يقل ثمن هذا العقار عن مائة وخمسين ألف دولار، وفضلاً عن ذلك فقد كان بيته الرحب ملكاً له. والأعظم من ذلك أنه لم يفعل ذلك من المضاربة

المحظوظة بل جاء نتيجة لجهوده الأمينة. وكانت نظافة سمعته فى أعلى عليين. ولا يغيب عن البال أنه بدأ مفلساً تماماً.

ولكنه - وهذا هو الشيء غير المعقول من قصته - كان يظن فى نفسه أنه ضعيف الذكاء. وهو تقييم للنفس يخلو من الذكاء! ليس تماماً لأنه برغم نجاحه البارز فى علاج الكثير من المواقف الهامة المعقدة كان يعوزه إلى حد كبير واحد من تلك العناصر التى تكوّن ما تعارف الناس عليه بالذكاء فقد كان يعوزه القدرة على التحدث والاسترسال فى الكلام وطلاقة اللسان.

وإليك ما يقوله عن نفسه :

○ إننى أتحطم تماماً إذا كان على أن أصدر لأحد أمراً بما يجب عليه عمله. إننى أعلم بالضبط ما أريده أن يعمل ولكنى لا أستطيع أن أصوغه فى كلمات. وإذا حدث وكان هناك أكثر من شخص موجود فإنه يصعب على جداً حتى أن أفكر. وتختلط على الأمور وتشوش ويدور رأسى حتى لأظن أننى على وشك أن أفقد عقلى. (وقد احتاج لعدة ساعات لكى أقرر هذه الحقيقة البسيطة).

والفضاحة أو طلاقة اللسان هى القدرة على استعمال الكلمات بسرعة وتأثر. وهناك نوعان من طلاقة اللسان: فبعض الناس يتكلمون فى يسر ولكن يكتبون فى صعوبة ولكن هناك غيرهم عندهم طلاقة فى الكتابة وعسر فى الكلام. وبعض الناس المحظوظين من أمثال الكاتب الراحل سنكلير لويس لديهم القدرتان وقد حدث أن قضت مجموعة منا فى ديترويت بولاية ميتشجان إحدى الأمسيات مع لويس فلم يعط واحداً منا فرصة للكلام. وهناك كتاب غيره وقد قابلتهم من أمثال جون جلزورثى، هـ. ج. ولز، برتراند راسل. كانت كتاباتهم فى منتهى الوفرة والغزارة والدسامة أما حديثهم أمام الجماهير فقد كان أقل بكثير من المستوى.

وأغلب الناس يتكلمون خيراً مما يكتبون، وهو ما يدل على أن طلاقة اللسان قدرة من القدرات التى تنمو وتحسن بالتدريب الذكى.

ولنرجع إلى مريضى هارى . و . إنه يستطيع أن يكتب خطاباً طيباً من خطابات العمل، إن وجود الناس معه هو الذى يربط لسانه.

وحسب ما كان يظن أحد المحللين النفسيين الذين سبق أن عالجه، كان يظن أن هذا العلاج كفىل بشفائه ولكنه لم ينجح. ولكن شيئاً آخر أشد اختصاراً للوقت وأقرب منالا وصلة هو الذى نجح معه.

فقد وضعت له شريط التسجيل وبعض المجلات الذائعة وطلبت منه أن يقرأ بصوت عال لمدة نصف ساعة كل يوم ثم يدير الشريط مرة أخرى ليسمع نفسه. وبهذه الطريقة استطاع أن يعوض الفرصة التى ضاعت عليه بعد أن ترك المدرسة ليخرج للحياة. فتعلم أن يستعمل

الكلمات فى عبارات وجمال. كما أنه تخلص من الخوف من سماعه لصوته ومن خوفه استعمال لغته الخاصة وبعد ذلك أرسلته إلى فصول لتعلم الخطابة فلما نجح هناك كان قد شفى.
إنه لن يكون مثل تشرشل ولكن مثل هذه الفصاحة لحسن الحظ ليست مطلوبة لا فى حياته العملية ولا فى حياته الاجتماعية.

وقد اكتشف العلماء أن فصاحة اللسان وانطلاقه تلعب دوراً كبيراً فى السلوك الذكى. وقد أجريت بحوث على الذكاء فى جامعة شيكاغو قام بها الدكتور لويس . ل . ثيرستون وزوجته ثلما طبقا فيها أحدث الطرق الإحصائية على تحليل نتائج اختبارات الذكاء. وقد أفنعتهما هذه الدراسات بوجود سبع قدرات عقلية أولية كل منها يعتبر عاملا فى السلوك المتكامل الذى نسميه بالذكاء. وطلاقة اللسان واحد من هذه العناصر أو العوامل. أما الأخرى فهى:

المقدرة الحسابية: فهل فى مقدورك الجمع والطرح والضرب والقسمة بسرعة وسهولة؟ فإذا لم يكن كذلك فلا تظن أن الحساب أعلى من مستواك فربما كان السبب أنه ثقيل عليك فى الحاضر أو فى الماضى.

وحل المسائل الحسابية السهلة يمكن أن يحسن قدرتك الحسابية. ففى متجر البقالة قد تجد نفس السلعة ولكن فى عبوات ذات أحجام مختلفة. فالسلعة وهى فى حجم نصف لتر قد تساوى أربعة قروش أما إذا كانت فى عبوة كبيرة فى حجم لتر فقد يكون ثمنها سبعة قروش. فخذ ورقة وقلماً واحسب الوفى الذى تحققه ثم اسأل نفسك هل الحجم الكبير يفسد عندك قبل أن تستهلكه كله. أو أن الحجم الكبير سيوفر عليك مشواراً آخر إلى المحل فيما بعد؟ فربما كان من الأحكم أن تشتري عبوتين من الحجم الصغير. وعلمك باحتياجات أسرتك يساعدك فى التصرف الذكى.

وفى المرة القادمة التى تخرج فيها للشراء خذ معك قلمًا وورقة وفكر فى مثل هذه الأمور بنفسك. فإذا كانت العمليات الحسابية صعبة عليك فحاول أن تنمى قدرتك الحسابية.

وهذا ليس من الأمور الصعبة فاستحضر كتاباً فى مبادئ الحساب وعلم نفسك الجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور الاعتيادية والعشرية وهذا بالتقريب كل ما يحتاج إليه شخص فى كتابة صكوك البنك وحساب ضريبة الدخل - وهو كل ما يحتاج إليه معظم الناس لكى يعيشوا بذكاء.

أما النسب المئوية فهناك جداول لها تغنيك عن الحساب. والواقع أن التفكير بالنسب المئوية هو متعة التفكير الحسابى. كما أنه مفيد إلى حد كبير. فاسأل نفسك إذا كم نسبة مئوية فى كل جنيه تكسبه تذهب لإيجار المسكن وللغذاء ولللبس ولأثاث المنزل وللترويح والتعليم؟

إن المال يعنى الحرية، الحرية فى الاختيار. ولكن إذا كنت لا تعرف أين تذهب نقودك أو ماذا تفعله بها فكيف يتأتى لك الاختيار بذكاء؟ فكلما أكثر من التفكير بالنسب المثوية اتسمت حياتك بالذكاء وراحة البال.

الذاكرة: وهذه واحدة أخرى من القدرات العقلية الأولية التى حددها ثيرستون، وشأنها شأن طلاقة اللسان والقدرة الحسابية يمكن تنميتها بالتدريب المنظم.

فقد كان من المعروف عن جيمس فارلى وهو العقل المدبر وراء اختيار فرانكلين روزفلت لأول مرة كرئيس لجمهورية الولايات المتحدة، كان من المعروف عنه أنه يحفظ عن ظهر قلب عشرة آلاف اسم. فكيف تسنى له لذلك.

إننى مقتنع أنه كان لديه نظام خاص لذلك.

ولقد رأيت أحد الذين يدرسون نظم التذكر وقوة الذاكرة يشرح أمام جمع حاشد من الناس كيف تنجح مثل هذه النظم. فقام بفصل صفحات ثلاث مجلات مختلفة ووزع الصفحات على الجالسين. فإذا قام واحد منهم وذكر اسم المجلة ورقم الصفحة قام المدرس على الفور ودون تردد بالوصف الدقيق لكل الإعلانات والرسوم المضحكة. والمادة الأدبية الموجودة فى كل صفحة. فهذا المشهد الاستعراضى له فائدة عملية هى أنه يوضح ما يمكن أن يصل إليه المرء فى تدريب ذاكرته باستعمال نظام خاص يمكن الأخذ به.

فهل تحب أن تذكر شيئاً أنت على وشك قراءته. إذا فطبق الخطوات الأربع التالية:

- ١ - مر على الموضوع بسرعة لتأخذ عنه فكرة عامة.
- ٢ - ثم اقرأه بإمعان وتمعن أكثر وأشر على الأفكار التى تريد تذكرها.
- ٣ - اكتب مجموعة من الأسئلة التى تحب أن تتذكر الإجابة عنها.
- ٤ - والآن أجب على هذه الأسئلة بأسلوبك ولغتك الخاصة وارجع إلى الأصل إن احتاج الأمر للتأكد من صحة الأجوبة.

وفى وقت فراغك أعد قراءة الأجوبة التى أعدتها وكتبتها. فإن التكرار هو أم الذاكرة. وفى نفس الوقت فإن هذه الطريقة كفيلة بأن تزيد من قدرتك اللغوية بطريقة عرضية غير مباشرة.

هل أنت واحد من أولئك الناس الذين لا يتذكرون أبداً ضبط «المنبه» قبل النوم. فإذا كان الأمر كذلك فأنت لا توجه انتباهها كافيًا لما تعمل أثناء عملك له. فأولئك الذين يفعلون الأشياء بطريقة آلية ينسونها أيضًا بطريقة آلية أيضًا. فلكى تتذكر ما فعلته أو قلتها أو سمعته يجب عليك أن توجه انتباهك لما تفعل أو تقول أو تسمع فى اللحظة التى تفعله

أو تقوله أو تسمعه. وإنى أظن أن هذا كان جزءاً من النظام الذى يعمل به جيمس فارلى لكى يتذكر الأسماء والوجوه.

وقد كنت فى الماضى أعتقد أن ذاكرتى للأسماء والوجوه ضعيفة ولكنى غيرت هذه الحالة النفسية. كيف؟ الأمر ببساطة هو أنى لا أسأل الناس أسئلة أو أفكر فيما أقوله لهم. بل أستعير عن هذه الحالة النفسية السلبية بحالة إيجابية ألاحظ فيها كل التفاصيل عن الشخص الذى أريد أن أتذكره وأربط هذه التفاصيل بأسمائهم. ولقد نجحت. وأكثر من ذلك فأنا أطمئن كثيراً إلى القلم الرصاص والورق وتجديد الذاكرة. فأضع ما أريد أن أتذكره فى بطاقات أتركها للقراءة والمراجعة فى وقت الفراغ. ويستطيع أن يفعل ذلك أى شخص يريد أن يقوى ذاكرته. وعندما يمتدحك الناس على ذاكرتك القوية الخارقة فلا تكشف لهم طريقتك إن كنت لا ترغب فى ذلك. بل ابتسم فى تواضع وقل لهم:

○ إن الحصول على الذاكرة القوية ليس شيئاً فى الواقع. إنها فى البطاقات وهذا كل ما فى الأمر.

الفهم اللفظى: أى القدرة على فهم ما تقرأ. إنها قدرة عقلية أولية هامة. وهى كغيرها من القدرات العقلية الأولية، يمكن زيادتها بالتدريب الذكى، وليكن المرجع الذى تدرسه قاموساً للمترادفات. فحسبك أن تقرأه وأن تقوم بتكوين الجمل التى توضح أنك تعرف الفروق الدقيقة لعانى الكلمات المتعددة التى تستعملها. وهذا أعظم تمرين أعرفه لزيادة قوة الكلمات عندك.

وإذا كان لديك شريط للتسجيل فسجل تدريبك عليه وبهذا تزيد من ذاكرتك اللفظية ومن قدرتك على الكلام بطلاقة فى نفس الوقت. كما أن هذا التدريب سيزيد من قابليتك على التفكير والتعقل.

التعقل: وهذا هو أهم القدرات العقلية الأولية التى اكتشفها ثيرستون وهو عبارة عن عملية السير من المعلوم إلى المجهول. فما نعلمه أو نظن أننا نعلمه نسميه المعطيات أو المفروضات أو المقدمات المنطقية. فقد كان الناس فيما مضى يعتقدون أن الأرض مسطحة وكان هذا بالنسبة لهم من المقدمات المنطقية. فعقلوا أنهم لو اقتربوا جداً من حافة هذا المسطح فربما سقطوا من فوقه. وكان منطقتهم خيراً من مقدماتهم المنطقية. ولكن ما إن غيروا مقدماتهم المنطقية فافترضوا أن العالم مستدير حتى شعروا بالاطمئنان وهم فى المحيط الأطلنطى العظيم كما كانوا يشعرون فى بحرهم الأبيض المتوسط الصغير الذى يألونه. فمقدمة منطقية جديدة أوصلتهم إلى نتيجة أكثر فائدة.

فالمقدمة المنطقية هي الهرم الذي نقيم عليه روافعنا وهي المنطق فإذا كان الهرم أجوف هُنا فكيف يستطيع أن يتحمل ثقل المنطق؟

والمنطق له مكانه في التعقل ولكن الناس يرضون لأنفسهم بحياة سطحية لا لأنهم يتجاهلون المنطق ولكن لأنهم يبدؤون من مقدمات منطقية باطلة.

والتعقل وهو أهم القدرات العقلية الأولية يمكن تنميته في سهولة ومتعة بقراءة كتابين هما:

١ - اللغة في الفكر والعمل تأليف س . أ . هياكاوا، والثاني:

٢ - الناس في مآزق تأليف ويندلي جونسون. وكلا هذين الكتابين يكمل الآخر. ومن كليهما يمكن الحصول على منطق العلم الحديث. وكلاهما كفيل بجعل تعقلك أشد حدة وأكثر فاعلية في حل مشاكلك اليومية.

إدراك الأبعاد وسرعة الإدراك: إدراك المسافات والأبعاد هو القدرة على تخيل أو تصور العلاقات بين أشياء من أشكال وأحجام مختلفة. إن في متجر الثياب حين يلقي عليك البائع نظرة ثم يلتقط من على المشجب الثوب الذي يناسبك مثلاً يوضح هذه القدرة العقلية الأولية.

وليس هناك علاقة ملحوظة بين إدراك الأبعاد وسرعة الإدراك، وبين القدرات العقلية الأولية الأخرى. وعلى أية حال هناك نقطتان خليقتان باهتمام خاص الأولى: أن إدراك الأبعاد والمسافات شأنه شأن بقية القدرات العقلية الأولية يمكن تنميته بالتدريب الذي يتسم بالذكاء. والثانية: هو أن إدراك الأبعاد شأنه شأن بقية القدرات العقلية الأولية يمثل مجموعة من الاستجابات الذكية النوعية التي يمكن أن تنتقل أو لا تنتقل من موقف لآخر، فمثلاً بائع الثياب الذي يستطيع تقدير مقاسك بنظرة قد لا يستطيع التقاط المفتاح الإنجليزي المناسب لصامولة خاصة في محرك سيارتك. والمكانيكي الذي يستطيع التقاط المفتاح المناسب بمجرد نظرة يلقيها على الصامولة قد لا يستطيع التقاط الثوب المناسب لحجمك. كما أن الاثنين قد لا يستطيعان تصور التفاصيل الإنشائية بإلقاء نظرة على رسم التصميم الإنشائي.

وإنك لتعرف من خبرتك بالناس أن المحامي قد يكون قديرًا في التفكير بدقة في المسائل القانونية ثم لا يكون في تعقله أي منطق إذا انتقل إلى الدين أو الطب أو حتى علاقاته العائلية الخاصة. فالتعقل شأنه شأن إدراك الأبعاد قد ينتقل أو لا ينتقل من موقف لآخر.

وهذه الحقيقة تنطبق على كل القدرات. فقد تظن أنه إذا كان رجل يجيد نوعًا من الجراحة فهو قادر على أنواع الجراحة. ولكن الأطباء يعلمون خيرًا منك. فأحسن جراحى الولادة لا يرغب في جراحة العيون كما أنه ليس هناك من دليل على أن جراح الولادة القدير قد يكون

قديراً في دراسة أى نوع آخر من الجراحة. لا شك أن هناك بعض انتقال للمهارات، لكن لكل تخصص نوعى مهاراته النوعية الخاصة.

فالذكاء كما أشار ثورنديك له طابعه النوعى. ومع أن هناك بعض الانتقال للسلوك المتسم بالذكاء من موقف لآخر فإن اكتشافات ثيرستون تثبت أن مقدار القدرة التى يمكن أن تنتقل من موقف لآخر أقل بكثير من أن تكون مائة فى المائة.

فطلاقة اللسان والإدراك اللفظى والذاكرة والقدرة على التعقل والمقدرة الحسابية وإدراك الأبعاد وسرعة الإدراك - كل هذه القدرات العقلية الأولية هى مهارات نوعية يمكن استعمالها فى العديد من المواقف.

فطلاقة اللسان وهى أداة تجد العالم كله ميداناً لها تصلح فى أى المواقف، والمستقلون بالسياسة يمكن أن ينجحوا بدونها إذ إنها بالنسبة إليهم تكون نوعاً من القدرات العقلية التى تخفى أو تستر الفاقة فى غيرها من القدرات العقلية التى قد تكون ألزم لعملمهم كمنظمين ورجال يعملون لإقامة القانون، أما المهارات النوعية الست الأخرى التى يسميها ثيرستون قدرات عقلية أولية فهى لازمة أيضاً بنفس المقدار.

ويشير ثيرستون إلى أن هذه القدرات العقلية الأولية تعمل فى تضامن فى أى عمل أو تصرف يتسم بالذكاء إلى حد كبير. فالواحدة من المهارات تنمى دائئاً واحدة أخرى. فمثلاً المقدرة الحسابية القوية إذا اقترنت بالمقدرة الفذة على التعقل يمكن أن تخرج عالماً رياضياً ممتازاً. فإذا أضفت إليهما طلاقة اللسان ومسحة من روح المرح وبعضاً من الخبرة العملية فبذلك يكتمل لديك مدرس جيد للرياضيات.

وتستطيع أن تطبق ذلك فى حياتك الخاصة. فأى امرئ يريد أن يحيا حياة تتسم بالكثير من الذكاء يلزمه أن يتعلم كيف يحسن أداء تلك الأشياء وثيقة الاتصال به. وكلما كثرت الأشياء التى يتعلم كيف يؤديها بذكاء زاد ما يتسم به من الذكاء.

القاعدة رقم ٢

نمّ قدراتك العقلية الأولية بالتمرين والتدريب عليها حسب ما تحتاج إليه. ولكن ألا يلزم أن يكون المرء ذكياً قبل أن يستطيع الحصول على القدرات العقلية الأولية السبع؟ أو بعبارة أخرى أليس هناك شىء له طابع عام يشبه الذكاء العام الذى تقع تحته هذه القدرات الخاصة؟

لم يقل بذلك لا العلامة ثورنديك ولا العلامة ثيرستون، ولكن لنفحص الموضوع بأنفسنا.

أخذت منى السيدة «ب» موعداً لرؤية ابنتها جيرالدين التي اختلطت عليها الأمور إلى حد كبير. وكما أخبرتني الأم فقد تزوجت الابنة من رجل هو نموذج للبلادة الكاملة. إنه نشأ في الريف ولم يكن يحسن قواعد اللغة في الحديث وقد طلبت منى الأم أن أصحح من تفكير جيرالدين وأشجعها على طلب الطلاق حتى تتاح لها الفرصة للزواج ثانية من أى كان بحيث لا يكون فارق المستوى بينهما بهذا المقدار. وكل هذا سهل ميسور لأن جيرالدين - برغم عنادها وحالتها النفسية السيئة - كان تقدير ذكائها فى الاختبار هو ١٥٣.

وقد توقعت أن تكون جيرالدين صارمة عنيفة، وقد كانت. لقد كانت هذه الطفلة الجحود أشد إيلاماً - خصوصاً لوالديها - من أنياب الأفعى. وكانت تقول إنها لم تطلب أن تولد. وقد اجتمع لها كل شيء، فلم تكن تحمد لمخلوق شيئاً. إنها تقبلت منة الحياة كما تتقبل الوسائد من المطاط المنفوخ والطرق الناعمة اللينة وكل شيء، عملت عبقرية الإنسان فى أن توسدها به حتى تقيها الصدمات والمطبات فى طريق الحياة. إنها كانت تأخذ كل هذه الأشياء كقضية مسلمة دون أن تنبس بكلمة شكر.

صحيح أنها لم تطلب أن تولد. كما أنها لم تطلب من مدينة لوس أنجلوس التى تعيش فيها أن تمدّها بالماء النقى وضوء الكهرباء وحماية الشرطة ووقاية الإجراءات الصحية والطرق الجيدة والطعام الجيد والمتاجر المريحة المليئة بالبضائع. لقد كانت تعتبر كل هذه وغيرها من الأشياء الطيبة كحق لها دون أن تفكر لحظة فى أن هذه الأشياء إنما هى نتيجة للجهد والدموع والعرق والدم - لقد كانت تأخذها دون أن تسأل نفسها ماذا يمكن أن تقدمه فى مقابلها. فلم تفكر أبداً فى أن تقدم شكرها قبل أو بعد أو أثناء وجبات الطعام. وقد كان العرفان والحمد لله أو للإنسان غريباً عن طبيعتها. لقد كان تقدير مستوى ذكائها هو ١٥٣ ولكن مع كل مقدرتها الكبيرة المزعومة للتعلم لم تتعلم أبداً أبسط الحقائق وهى أن العرفان والامتنان هما أول الفضائل التى عن سبيلها يصبح فى الإمكان الحصول على كل الأشياء الأخرى الطيبة.

فماذا فعلت بتقديرها العالى فى الذكاء؟

لقد تسببت لنفسها فى الطرد من المدارس الثانوية الخاصة ومن الكليات نظراً لأنها لم تكن تهتم بالتعلم من ناحية ومن ناحية أخرى أنها لم تكن تستطيع التعايش والتوافق والانسجام مع مدرسيها أو زملائها فى الدراسة. فالتاريخ لا تعلم منه شيئاً ولا تعنى به فى أى شيء: «إنه كله عن حروب وأشياء». ولكن الغريب أن ذاكرتها كانت رائعة فيما يتعلق بالمشاحنات الكثيرة التى كانت لها فى طفولتها المبكرة. فكل ما تعرفه أن هذه المشاحنات فرضت عليها من

الجميع. وأن أحدًا لا يحبها، وأن كل فرد كان على استعداد للإضرار بها، فهذه هي طريقة الناس جميعًا».

ولكن لا تظن أنها كانت تتخيل ذلك. فهي لم يكن لديها جنون الاضطهاد. لقد كان ذلك حقًا تمامًا فقد كانت لديها موهبة إثارة الحقد في الناس كما لغيرها من الناس من موهبة إثارة المحبة في قلوب غيرهم.

وكان لها ذاكرة جيدة وخصوصًا فيما يختص بالأحقاد. وكان فهمها اللفظي طيبًا. لكي تفهم مجلاتها التافهة التي تعالج القصص التي تحكى عن البطلات اللائى يعانين طويلا من الشدائد وأخيرًا ينقذهن من هذه الشدائد رجال أخيار يصلون فى اللحظة الأخيرة لإنقاذهن. وكانت تجلس الساعات أمام جهاز التليفزيون، وكانت دائمًا تفهم المغزى من القصة أو الفكاهة. وكانت طلاقة لسانها جيدة خصوصًا إذا كانت تريد طرد أحد أو تريد التحدث عن معاركها الكثيرة. وكانت مشكلتها الوحيدة أنها لا تستطيع الاحتفاظ بعمل أو وظيفة. ذلك أن المشرفين كانوا دائمًا ضدها. ولم تكن تستطيع الإبقاء على زوج «إنه مثل غيره من الرجال: إنهم يحبونك لشيء واحد فقط». إنها لم تكن تستطيع مجاملة أحد «ولماذا أفعل؟ إن أحدًا لم يجاملنى». وبالاختصار مع كل انتصاراتها فى اختبارات الذكاء لم تكن تستطيع أن تتعلم كيف تحيا وتعيش.

والآن لنلق نظرة على صورة أخرى مغايرة وهى لشخص ضعيف الذكاء.

ففى ذهنى صورة شاب فى العشرين، كنت أقوم بعلاجه منذ كان فى السادسة من عمره. فقد أصيب بنزيف فى المخ عند الولادة. ولم يستطع أبدًا أن يتكلم بوضوح. ولا يستطيع القراءة إلا لبضع كلمات وليست لديه القابلية لتعلم الحساب. وقد أجرى عليه اختبار لقياس ذكائه فى مستشفى كوماريللو الحكومى فكان تقديره هو ٤٠، وهو تقدير منخفض جدًا. ومع ذلك فهذا الشاب يستطيع قيادة جرار بمهارة عظيمة، وهو يقوم بحرق أراضى والده، كما أنه أسلم قائد جرار عرفته. فأن تقول عنه: إن ذكاه ذكاء طفل فى الخامسة قول لا معنى له، لأننا بهذا نتجاهل تلك المهارات التى قد يحسده عليها كثير من علماء النفس الشبان الأفتاذ.

وكان لهذا الصبى طبيعة مشرقة سعيدة، فهو ودود عطوف ويتعايش مع الناس بطريقة طيبة. هذا برغم أنه لا يستطيع أن يتكلم فى وضوح يجعل الناس يفهمونه إلا من الذين يعرفونه جيدًا. وهو ليس مغفلًا أبله.

ولقد عرضته للفحص مرة على متخصص مشهور فى المخ وكان هذا المتخصص يتكلم الإنكليزية ولكنة خاصة ملحوظة. فكانت عدم المقدرة لفهم بعضهما متبادلة، وبعد الفحص سألت الفتى

ما رأيه فى الطيب، فقال: «إنه رجل لطيف ولكن لا يمكن لأحد أن يفهم ما يقوله، ومع ذلك فليس عليه من لوم لذلك. إنه أجنبى» والعجيب أن هذا الطيب قال نفس الشيء عن الفتى باستثناء قوله: إن الفتى أجنبى فقد قال إن بعض التلف قد حدث فى منطقة بروكا للكلام فى المخ.

فجيرالدين وهذا الفتى كان كلاهما متأخرًا فى نموه. فكلاهما ينقصه أنه حرم من بعض العناصر الأساسية لتعلم ما يمكن أن يعينهما على العيش بذكاء. فالفتى كانت تنقصه المواهب الدراسية، وجيرالدين كانت تنقصها المواهب الاجتماعية.

ولا يشك أحد فى أن بعض الناس تختلف عن بعضها الآخر فى موهبتها لتعلم القراءة والكتابة والحساب. وهذه المواهب يمكن قياسها بدرجة من الدقة بما يسمى باختبارات الذكاء.

ولكن هناك مواهب لتعلم أشياء أخرى مثل الموسيقى والرقص والرسم وكلها مهارات ليست لفظية، ثم هناك موهبة التعلم وحالة اتجاهك نحو نفسك ونحو الآخرين وهى ما تؤدى إلى السعادة وراحة البال. إن القدرة على الوصول إلى حالة نفسية طيبة بهيجة لا يمكن قياسها بأى اختبار للذكاء رأيت فى حياتى برغم الحقيقة الواضحة من أن هذا الاتجاه النفسى أو تلك الحالة هى ما تؤدى إلى الحياة والعيش بذكاء.

وكل علماء النفس يعلمون أن الأرقام التى يمكن الوصول إليها باختبارات الذكاء تتأثر بالعوامل الثقافية. ولم تكن من قبيل المصادفة أن يقوم رجل فرنسى هو ألفرد بينيه بابتكار أول اختبار ذكاء، إذ إن القدرة الأدبية لها تقدير ومقام عال فى فرنسا. وليس أيضا من قبيل المصادفة أن فكرة مستوى الذكاء أو التقدير فى اختبارات الذكاء قد جاءت عن طريق رجل ألمانى هو ويلهلم إستيرن. ففى ألمانيا كما فى فرنسا يكون للقدرة اللفظية والحسابية تقدير كبير وجزء أوفى. أما فى الولايات المتحدة فإن لهذه القدرات احترامها ولكن ليس لها نفس الهيبة. فعندما وعد الرئيس أيزنهاور بأن يدخل فى وزارته «أعظم الأدمغة فى البلاد» بر بوعده بأن ملأ وزارته بأصحاب الملايين وكلهم من رجال الأعمال الناجحين. فلم يدخل أساتذة الجامعات وغيرهم من المتخصصين فى عداد رصيده من الأدمغة فى قوله أو وصفه الأول. ويقول الإنجليز قولتهم المأثورة: «إن معارك بريطانيا تكسب فى ملاعب كلية إيتون». ولاحظ هذه أنها ليست فى فصول الدراسة بل فى الملاعب. والمغزى أن الموهبة للألعاب تتقدم الموهبة الدراسية. وقد يكون لهم بعض ما يبرر قولهم. فقد لا يكون بالضرورة أذكى الطلبة هو أذكى المحاربين. وفى معظم بقاع العالم قد ينظر إلى الشخص باعتباره على الذكاء دون أن تظهر عليه أية موهبة دراسية قط.

فاختبارات الذكاء إنما خلقت لتقيس الموهبة الدراسية وهذا بالضبط هو ما تؤديه. والذين يُسوون بين الموهبة الدراسية والذكاء الأساسى أوالعام إنما يفعلون ذلك لأنهم - دون وعى منهم

- وليدو البيئة التي خرجوا منها والتي ترفع من شأن الموهبة الدراسية فوق كل شىء. فليس عجيبياً بعد ذلك أن المدرسين والباحثين الاجتماعيين والقضاة وغيرهم من الذين يرتبطون بالنواحي الفكرية ينظرون في الغالب إلى تقدير اختبار الذكاء للشخص على أنه مقياس لقدرته على مجابهة المواقف الاجتماعية والاقتصادية بذكاء. فالمقدرة على النجاح فى الدراسة تعنى الكثير بالنسبة لهم. إنها منحهم مركزهم فى المجتمع ومنحتهم ما يتعيثون به ويأمنون. فمن الطبيعى ألا يشعروا بالنقص إذا وجدوا أنه تعوزهم قدرات أخرى: «فأنا لا أستطيع أن أرسم بالزيت أو أؤلف قطعة موسيقية أو أنسج قطعة نسيج فنية، فهذه كلها أدوات لأشخاص معينين». أما بالنسبة لهم فإن تقدير اختبار الذكاء هو شارة الذكاء العام.

وقد يكون له الحق فى ناحية واحدة. فكثير من المهارات المطلوبة للعيش بذكاء فى مجتمعنا تعتمد أساساً على الإجابة فى المدرسة. فلا عجب أن كان الأمريكى المتعلم يؤمن فى تقديرات اختبارات الذكاء التى يتلقونها من علماء النفس كنوع من البركة الدينية مثل السر المقدس أو العشاء الربانى.

فما هى اختبارات الذكاء هذه التى يحكمون بها على الأطفال؟ وما هو التقدير فى اختبار الذكاء؟

إن المسألة كلها بدأت فى عام ١٩٠٥ عندما نشر عالم نفس فرنسى اسمه سيمون بينيه دراسته عن اختباره للذكاء. وقد بدأ عمله بوضع عدة مسائل تتفاوت فى درجة صعوبتها ثم قام بإعطائها لمجاميع من الأطفال من أعمار متفاوتة. فمثلاً جعل من اختباره مجموعة من المسائل على درجة من الصعوبة بحيث لو أعطيت لأطفال فى السادسة لا يجيب عنها بالكامل إلا نصف عددهم. ثم عمل مجموعة من الأسئلة بالنسبة للأطفال فى سن السابعة وهى على درجة من الصعوبة بحيث لا يجيب عنها بالكامل إلا نصف المجموعة. وبعد عدة محاولات وتجارب استطاع أن يجعل لكل سن مجموعة من الأسئلة. ثم قدم هذه الأسئلة للمدرسين فى فرنسا طالباً منهم «اختبروا أطفالكم. فإذا حاز طفل فى السادسة على مائة درجة فهو على الأقل فى مستوى عادى من الذكاء وسيكون هذا مستواه الدراسى كما يمكن أن نتوقع».

واستقبل المدرسون اختبارات بينيه بحماس. لأنها كانت معياراً للقدره يمكن أن يقاس به كل طفل وأن يقارن بغيره من نفس السن، كما أنها تساعد المدرس حى الضمير على أن يعطى كل طفل نوع التعليم الذى هو فى أمس الحاجة إليه. فمثلاً هناك طفل حصل على ١٠٠ درجة فى اختبار السنوات التسع برغم أن عمره ست سنوات. فقد كان وجود هذا الطفل فى الفصل مشكلة. لماذا؟ لأنه كان ملولاً ضجرًا. فما يعطى له ليعمله لا يكفيه.

واليوم يوضع الأطفال الموهوبون في فصول خاصة حيث يعطون كفايتهم من العمل الذى يرضى أدمغتهم النشيطة.

وهنا طفل فى العاشرة كانت نتيجة اختبار ذكائه ١٠٠ فى الاختبار المقرر لثمانى سنوات. فلماذا هو متأخر فى النمو؟ هل كان ذلك عن عجز فى فرص التعليم فى بدء حياته؟ أو هل هو يعانى من ضعف فى السمع أو البصر؟ أو هل جهازه التنفسى مختنق بالزوائد الأنفية؟ أو كان هناك إصابة أضرت بالمخ؟ وقبل اتخاذ الإجراءات العلاجية لابد من وضع الأسئلة الصحيحة المحددة. وقبل أن يسأل الإنسان فلايد أن يعرف مقدماً أن هناك شيئاً على غير ما يرام. وهنا تظهر فائدة اختبارات بينيه. فلا عجب أن هذه الأداة الجديدة حين وضعت فى أيدي المدرسين كانت مبعثاً لسرورهم.

وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الاختبارات المسماة باختبارات الذكاء لها قيمة من ناحية التنبؤ بالمستقبل. والواقع أنها لا تقيس إلا ما حصل عليه التلميذ المختبر من التعليم، ولكن يستطيع المرء أن يبنى على الماضى كيف سيكون المستقبل. فالطفل الذى تعلم الكثير فى الماضى يتوقع منه أن يحتفظ بقدرته على التعلم. طبعاً يمكن أن تكون مثل هذه الاستنتاجات خاطئة، فكثير من المدرسين المتشائمين رأوا كيف يتحول طلبتهم الخاملون إلى أفاضل فتساءلوا: «من كان يتصور هذا؟» ومع ذلك فإن اختبارات الذكاء تعطى فعلاً مقياساً لا بأس به لمقدرة الطفل على الأعمال الدراسية.

فعلى ذلك يمكن اعتبار ما أمكن الوصول إليه من اختبارات بينيه أنها عملية معايرة قياسية لأى أداء عقلى يمكن توقعه من مجاميع الأعمار المختلفة بشرط أن كل مجموعة ذات سن خاصة يكون لها نفس الأساس الثقافى والدراسى وأنها طريقة للقياس والمقارنة بالنسبة لإنجازات الأطفال الداخلين فى مجموعة سن واحدة، وأنها فى النهاية عبارة عن طريقة تقريبية وإن كانت ناجحة فى اختبار القدرة على السير بنجاح فى المدرسة.

إن عمل ألفرد بينيه من أعظم الإنجازات فى علم النفس. وقد كان نجاحه سبباً فى إثارة الحماس للدراسة الإحصائية لجميع مناحى الحياة العقلية، وكان هذا لصالح جميع الذين يعملون ويتعاملون مع الناس. ولن يستطيع أحد أبداً أن يقدر مدى الخير الذى حققه بينيه للملايين.

وبعض الناس لا يقدرّون على ترك الإنجازات العلمية وشأنها. إنهم يشعرون بأنه لزاماً عليهم أن يضيفوا عليها من تفسيراتهم المبنية على الحدس والتخمين، وبذلك يكون له نصيب فى الإسهام فى الكتب المؤلفة عن الموضوع والتى أثقلتها الفلسفة الرخيصة التى أخرجها غيرهم من فلاسفة الحدس والتخمين والأوهام. ومن هنا جاء ما يسمى بنسبة الذكاء.

فكيف نشأت؟ ومن الذى اخترعها؟... الذى يمكن أن ينسب له هذا الوزر هو ويلهم ستيرن الذى سبقت الإشارة إليه. وقد بدأ ستيرن بالزعم بأن الطفل ابن ثمانى السنوات الذى يحصل على ١٠٠ فى اختبار مقنن لمن هم فى الثانية عشرة يكون فى «عمر عقلى» يعادل اثنى عشر عامًا.

لا شك أن هذا الكلام أجوف. فأى واحد يعرف الفرق بين الأطفال فى سن الثامنة والثانية عشرة يعلم أنه لا يمكن لمن هم فى سن الثامنة أن يكون لهم العمر العقلى لمن هم فى الثانية عشرة. فتموهم النفسى - الجنسى مختلف، ويزيد هذا الاختلاف فى حالة البنات (اللاى ينضجن فى سن مبكرة) لدرجة أن بنات الثامنة يختلفن عن بنات الثانية عشرة لدرجة أنهن يبدوون وكأنهن ينتمين إلى أجناس بيولوجية مختلفة. حسناً ربما لم يكن الأستاذ ستيرن يدرك الفرق بين من هم فى الثامنة والثانية عشرة. ولكن الأطفال يميزون الفارق فى العمر العقلى بحرف النظر عن أية مواهب دراسية. ويبدو أن مسألة ائمر العقلى هذه من البساطة لدرجة لا يفهمها إلا طفل.

نعم إن الأطفال يدركون الفرق بين مجموعات السن. وهم يعلمون أن هناك فارقاً فيما يهتمون به من أشياء وفى حالاتهم النفسية وفى مشاعرهم وفى عواطفهم وفى كل شىء آخر يعمل على النضج العقلى. والمدبرون القائمون على الترفية ورعاية الشباب يعرفون الفرق. وكذلك أطباء الأعصاب وأطباء الغدد اللاقنوية والأطباء العاديون ومصممو الأزياء. ولا يقدر عليها إلا فيلسوف حين يقول: إن طفلاً فى الثامنة حين يبدي قدرة ممتازة فى الأعمال المدرسية يكون له عمر عقلى لطفل فى الثانية عشرة.

ويائتل يمكن أن يقال: إنه نظراً لأن الطفل ذا الاثنى عشر ربيعاً المدعو يهودى مينوهين كان يستطيع أن يلعب على الكمان أحسن من أغلب اللاعبين الآخرين فى قسم الكمان فى الأوركستر السيمفونية فإن العمر الفعلى للصبى ذى الاثنى عشر عاماً يعادل ثلاثين عاماً عقلياً. وأن نقول عنه إنه عبقرى وإن له موهبة فذة خارقة شىء. أما العمر العقلى فشىء آخر غير مفهوم!

وأما من ناحية السن بالنسبة لعدد السنين الزمنية وهو ما يسميه ستيرن «العمر الزمنى» فليست هناك مشكلة.

والعمر العقلى والزمنى كما يحددهما ستيرن يشتركان فى شىء واحد وهو أنهما يمكن التعبير عنهما بالأرقام مثل ١٢ . ٨. والأرقام يمكن معالجتها والتصرف فيها فيمكن جمعها أو طرحها أو ضربها فى بعض أو قسمتها على بعض. فإذا أجريت عملية القسمة فإنك تحصل على نسبة وهى رقم ثالث يعبر عن العلاقة بين الرقمين الأولين. فإليك مثلاً نسبة الذكاء لطفل فى الثامنة يحصل على ١٠٠ فى اختبار الثانية عشرة:

$$١٠٥ = \frac{١٢}{٨} = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الزمني}}$$

وقام ستيرن بتحريك العلامة العشرية خطوتين ليتيسر قراءتها والتحدث عنها فأصبحت :

$$١٥٠ = ١٠٠ \times ١,٥ = \frac{١٢}{٨} = \frac{\text{ع.ع}}{\text{ع.ز}}$$

فهذا الرقم وهو ١٥٠ يسمى نسبة الذكاء.

ولو وقف ستيرن هنا لهان الأمر. فالقول بأن حنة سميث نسبة ذكائها ١٥٠ لا يخبرنا بكثير عن إمكانياتها واحتمالاتها، ولكنه على أية حال يشير إلى موهبة خاصة لاجتياز الكثير من المقررات التقليدية في المدرسة. بالطبع قد ترسب في اللغات الأجنبية - وكان تشرشل يصف نفسه بالغباء الكامل في مثل هذه المواضيع - ولكننا سنبقى على الافتراض حتى يثبت لنا عكسه وهو أن حنة ستجيد في المواضيع التي تحتاج إلى الفهم اللفظي وطلاقة اللسان والحساب الرياضى. كما أننا سنفترض أيضاً أن ذاكرتها للكلمات والأرقام والمعدلات الرياضية ستكون أعلى بكثير من المستوى العادى. وهذا بالتقريب كل المعلومات الإيجابية التي يمكن استخلاصها من اختبار الذكاء الذى أجرى عليها. أما إنها سيكون منها ما تعزبه في المدرسة أو فى أى مكان آخر فهذا موضوع آخر.

ولكن ستيرن لم يقف عند هذا الحد. فمن اللغة الشائعة غير الدقيقة استخلص الاسم السحرى «ذكاء» ثم زعم أن هذه الخاصية غير واضحة المعالم أو محددة هى التى يُعبر عنها بالنسبة التى استخرجها.

وهذا أخرج ما فى العلم من كلام أجوف.

إنها تذكرنى بتلك الأيام الخوالى حينما كان الفلاسفة يعتقدون بأن الحرارة عبارة عن مادة غير مرئية تتخلل كل شىء يكون دافئاً أو حاراً. وكانت هذه المادة الافتراضية تستحق اسماً رناناً فأسموها «فلوجستن» وظل الأمر حتى الزمن الذى عاش فيه واشنطن والناس العلماء المثقفون يؤمنون «بالفلوجستن» وكانوا واثقين من أن حدود الحصان إذا كانت محمأة ساخنة فإن الحرارة فيها كانت تقوم مستقلة عن الجزيئات التى تتكون منها الحدودة وأن هذا الشىء المستقل كان «الفلوجستن». أما الفكرة أو الإدراك بأن «الحرارة» هى تعبير وصفى يعصف حركة الجزيئات وهى تتحرك فقد كان فوق إدراكهم.

فكلمة «الذكاء العام» التى قال بها ستيرن هى «فلوجستن» علماء النفس.

القاعدة رقم ٤

لا تقلق فيما يختص بنسبة مستوى ذكائك. وبدلاً من ذلك نم ذكاءك النوعي.

٥

إن كلمة «ذكي» هي صفة نستخدمها لوصف التصرف الموجّه بفاعلية أما كلمة الذكاء فليس لها مكان في قاموس العلم. وحينما نستعمل في لغتنا الدارجة الاصطلاح أن رجلاً ما عنده ذكاء، فإنما نعني أن بعض الأشياء التي يعمله تتسم بالذكاء.

ولكن القضاء على خرافة الذكاء العام يترك ظاهرتين بدون تفسير وهما العبقرية والتأخر العقلي. فماذا عن أولئك الرجال ذوى المواهب العالية من أمثال لودفيج فون بيتهوفن، وليوناردو دافنشى وتوماس ألفا إديسون، وبنجامين فرانكلين وميكل فراداي وألبرت أينشتاين. وماذا عن الأطفال المتأخرين عقلياً؟ وكيف نوفق بين هذه المفارقات؟

إن تفسير هاتين الظاهرتين لا نجده في الأوهام والخرافات ولكن في أرض الواقع في علمين هما علم الأعصاب وعلم الاجتماع.

فعالم الأعصاب يقول لنا إن الجهاز العصبى مكون من خلايا هي عبارة عن بطاريات كهربية صغيرة ولكل منها عملها الخاص الذى عليها أن تؤديه. ولا يتشابه بالضبط جهازان عصبيان. والشخص الموهوب عنده بعض الخلايا ذات الكفاءة الفذة على الاتصال بغيرها من الخلايا العصبية الأخرى ذات الكفاءة الفذة بحيث تخلق بينها جهازاً. وهذا هو أول مكونات المواهب الخاصة.

ولكن هذا وحده لا يكفي بذاته. فالموهبة هي تعبير صادق من الكائن الإنسانى ككل. إنه يشتمل على جسم ساعد الحظ فى بنائه وتنظيمه حتى يستطيع أن يستغل الإمكانيات الخاصة بجهاز عصبى فذ.

خذ مثلاً لاعب كمان مثل جاشا هايفتزر. إن سمعه لا بد أن يكون كاملاً ليساعده على إدراك متى تكون نغماته حادة زيادة عن اللازم أو منخفضة زيادة عن اللازم. فضلاً عن أن حساسيته للصوت يجب أن تكون حادة جداً. كما أنه يجب أن يكون عنده ذاكرة قوية للموسيقى. كما يجب أن يكون لديه الكثير من طرق الاتصال العصبية بين المناطق السمعية فى مخّه والمراكز العصبية السقلية. وإلا لما كان عنده شعور بالموسيقى، كما يجب أن يكون لديه إحساس قوى بالتوافق (ريذم) معتمداً على مراكز عصبية أخرى. والخلايا الحركية فى جهازه العصبى يجب

أن تهيئ له سيطرة كاملة على يديه وذراعيه. وليس هذا كل ما فى الأمر. فالحقيقة أن الأمر يحتاج إلى نظام معقد من الخلايا العصبية مصحوباً بتنظيم عصبى ليتمكن إخراج موهبة موسيقية. ولقد ذكرت طرفاً من تفاصيل الموضوع لكى نعين على إعطاء صورة عامة عما يحتاج إليه نوع من الذكاء النوعى.

فلكى يكون للكلام عن الذكاء معنى فعلى العالم أن يختار أولاً طرازاً خاصاً محدداً من السلوك الذكى ثم يدرس الناحية العصبية والفسىولوجية (مختص بوظائف الأعضاء) لهذا السلوك. ولن يزيد عمله هذا عن نصف الواجب عليه عمله لو اقتصر عليه وترك علم الاجتماع.

إن علم الاجتماع هو دراسة تركيب العلاقات الاجتماعية وعوامل الحركة فيها.

ويمكن التعبير أساساً عن الناحية الاجتماعية للذكاء فى كلمتين هما التشجيع والتثبيط. فالأعمال الفنية العظيمة فى الرسم والتصوير التى عملت فى مائة السنة من عصر النهضة الايطالية إنما تمت لأنه كان هناك سوق لها. فالرجال الذين وكلت إليهم الأمور فى تلك الأيام كانوا مغرمين بالرسم الجميلة. وكانت التربية الفنية للفنان منظمة. ولقد وجد رافاييل التشجيع فى الهواء الذى كان يتنفسه. واليوم يوجد تشجيع مماثل لأولئك الذين يمكنهم استنباط طرق جديدة لاستغلال الطاقة من الذرة.

والتشجيع الشخصى ضرورة لازمة أيضاً لازدهار العبقرية. فالأم التى تقول لابنها إنه مخلوق للعظام إنما تفعل شيئاً لجهازه العصبى. ففى ضوء ابتسامتها يمكنه أن ينمو فى سهولة ويسر.

والذكاء النوعى — أى الذكاء العامل — إنما هو مزاج طيب من الطبيعة والاصطناع ومزيج هانى من الاستعداد الموهوب والتربية الجيدة فالاثنان يبعثان الحياة فى الاستعداد الطبيعى الذى يؤدى إلى الحياة الفعالة السعيدة.

فماذا عن أولئك الذين جانبهم الحظ والذين يطلق عليهم: المتأخرون عقلياً؟ إن التأخر العقلى نوعى أيضاً. فأسباب التأخر العقلى كثيرة وكذلك مظاهره. فقد يحدث التأخر العقلى فى الأطفال بسبب عيوب فى النمو مثل وجود الماء فوق المخ، والإصابة أثناء الولادة، وحالات الالتهاب مثل وباء الالتهاب السحائى. وعلماء الأعصاب فى هذه الأيام لا يدعون العلم بكل شىء ولكن فى مقدورهم التحديد بدقة لأى موضع أو قسم من الجهاز العصبى قد أصابه ضرر أو توقف عن النمو. والأهم من ذلك أن فى استطاعتهم أن يقولوا أى الأجزاء من الجهاز العصبى ما زالت تواظب على عملها فتكون بذلك عاملاً فى إسماع الطفل المتأخر عقلياً.

وبما أنى لا أقصد إلى وصف الأسباب والمظاهر لأنواع التأخر العقلى المختلفة فسأقف عند هذا الحد. إلا أن هناك نقطة واحدة فحسب يجب وضعها أمام القارئ الذى يريد أن يفكر بذكاء فى

اتخاذ سلوك ذكي هي أن التأخر العقلي مثل العبقرية قد يصيب مساحات قليلة في المخ أو قد يصيب مناطق كثيرة. وأسبابه ليست عامة بل هي نوعية محددة مخصصة. وكذلك آثاره. وهذه الحقيقة تفسر السبب الذي من أجله يكون الأطفال المتأخرون في بعض المناطق المخية متقدمين في غيرها.

وهذا الكتاب لم يكتب أو يخصص للمتأخرين عقلياً. إنه للأناس العاديين الذين يريدون أن يحصلوا على قسط أوفر من السعادة عن طريق التنمية الذاتية الذكية، ولهؤلاء أقول:

إنكم تستطيعون أن تزيدوا من عدد استجاباتكم الذكية للمواقف لو عملتم قليلاً من تفكيركم. وقد تكون بعض استعداداتكم أدنى بكثير من مستوى العظمة. فلا تحزن ولا تجعل من ذلك همّاً ينغصك. فالكفاية العظيمة في أي من القدرات العقلية الأولية السبع التي حددها ثيرستون ليست ضرورة لازمة للحياة والعيش السعيد الفعال. وأحب أن أكرر هذا القول:

فالكفاية العظيمة في أي من قدرات ثيرستون السبع العقلية الأولية ليست ضرورة للحياة السعيدة المؤثرة الفعالة.

ومن ناحية أخرى يستطيع الشخص العادي أن يزيد نمواً في قدراته العقلية الأولية وفي كثير غيرها من القدرات العقلية النوعية إلى الحد الذي يوفر له كل المهارات اللازمة للحياة الذكية السعيدة.

فأنا تعوزني إلى حد كبير المهارة في استعمال أصابع يدي. وقد يكون ذلك راجعاً إلى قصر أصابعي الزائد عن الحد وكبير عضلاتها. وقد تكون الخلايا العصبية في مخي سبباً في جعلني طغلاً متأخراً في استعمال الآلة الكاتبة وقد يكون السبب راجعاً إلى أنني كنت مضطرباً في صغري إلى حلب أكثر مما يجب من الأبقار ودفع المحراث إلى أبعد مما يجب. كما أنني لم آخذ دروساً في الضرب على البيانو. ومهما كانت الأسباب فقد أظهر الاختبار أنه ليس عندي استعداد للضرب على الآلة الكاتبة.

ولكن لدواعٍ معينة كان علي أن أتعلّم طريقة اللمس على الآلة الكاتبة. وفعلاً تعلمتها وبالتدريب والمران وبالتوجيه الفني السديد استطعت أن أصل الآن إلى كتابة خمس وأربعين كلمة في الدقيقة دون أي جهد. والواقع أن مفاتيح الآلة تشعرنى كأنها امتداد لأصابعي.

إنني أعلم أن خمساً وأربعين كلمة في الدقيقة ليست سرعة كبيرة في الكتابة ولكنها تكفي لي وهذا ما يلزم.

كما أنني لست خطيباً مسترسلاً طلق اللسان. وما كنت ولن أكون كذلك فأنا تعوزني كثير من المهارات التي باتحادها وامتزاجها يكون الاستعداد الخطابي. وبرغم ذلك فأنا أستطيع أن

اجتذب جمعاً من المستمعين لمدة خمس وأربعين دقيقة دون أن يشعروا بالملل والضجر وهذا فضل أقتع به. وقد احتاج هذا منى إلى عمل وعمل كثير ولكنى وصلت.

وهناك علاقة محددة بين الأشياء التى نهتم بها لصلتها بعملنا أو بالترويج وبين الاستعدادات النوعية الخاصة. فالإنسان يميل إلى الرغبة فى عمل الأشياء التى يحسن أداءها ودون جهد. فالإنسان الذى ليس عنده الاستعداد الخاص للخطابة لا تكون له رغبة فى أن يصبح خطيباً. وكففيه أن يكون قادراً على التعبير بسداد عن نفسه أمام الجمهور، وهذا ما يستطيعه أى شخص عادى. وقد قام دبل كارنيجى بتعليم الآلاف من الناس كيف يفعلونه.

وإلى هذا الحد فيما يختص بالذكاء العام ففى مقدورك أن تتجاهله وتنساه. فقد قام فعلا علماء النفس التقدميون بطرحه مع التخمينات التى لا جدوى منها حيث يستطيع أن يرقد فى سلام بجوار الفلوجستن.

٦

فى بعض الأحيان أتكلم فى مجالس الآباء بالمدارس، وفى مناسبة من هذه المناسبات ناقشت موضوع الذكاء. وفى نهاية حديثى وجهت إلى الأسئلة لأجيب عنها.
فما الذى تظنه ويريد الآباء معرفته عن الذكاء؟ وإليك الأسئلة والأجوبة:

سؤال: إن زوجى طيب ويريد أن يسير ابننا فى أعقابهِ. وابننا فى السادسة من عمره ولكن متوسط الذكاء بالنسبة له هو ١٠٠ فحسب. فهل نضرب صفحاً عن التعليم العالى بالنسبة له ونعده لحرفة مثل النجارة أو السباكة؟

وقبل أن أجيب عن هذا السؤال. أحب أن أسبق ذلك بالإجابة عن سؤال آخر هو عكس هذا السؤال.

سؤال: إن ابنتى فى الثامنة من عمرها ونسبة ذكائها ١٦٠ ويرغم ذلك فهى لا تهتم بالكتب بل تفضل عليها اللعب فى الهواء الطلق. فهل يعطل هذا نموها العقلى.

الجواب: إن الدراسات الشاملة للاختبارات المتكررة لنفس الأطفال على مدى السنين تثبت أنه ليس هناك أى ثبات فيما يتصل بنسبة الذكاء. فمثلاً طفل فى السادسة كانت نسبة ذكائه ١٥٠ وحين وصل إلى سن السادسة عشرة كانت نسبة ذكائه ١٠٠، ومن الناحية الأخرى فإن طفلاً فى السادسة بنسبة ذكاء تعادل ١٠٠ قد ينمو ويزدهر لتصير نسبة ذكائه ١٥٠ فى سن السادسة عشرة. وتشير الإحصائيات إلى أننا لا نستطيع الحدس والتخمين فيما يتعلق

بالتغييرات فى الذكاء بأية درجة من الدقة كما لو استعملنا الحدس مع قطعة من العملة نقذفها فى الهواء وأى الوجهين سيكون هو الأعلى.

سؤال: هل هذا صحيح؟ لقد كنت أظن دائماً أن الذكاء وراثى.

الجواب: هذا صحيح، وإليك السبب: فبعض الأطفال عندهم ببطء ولكن عندهم ثبات فى التعلم. وغيرهم سريع فى التعلم ولكنه متقلب. فالسلحفاة تستطيع أن تفوز على الأرنب إذا ذهب هو للنوم واستمرت هى فى خطوة ثابتة.

فاختبار الذكاء لا يقيس إلا ما تجمع من المعرفة، ولن يستطيع طفل فى السادسة أن يجمع من المعرفة الكثير. وعلى ذلك فالمعرفة التى اجتمعت لطفل نبيه فى السادسة لن تزيد إلا القليل عما حصله طفل آخر فى السادسة وليس له هذا الذكاء. ولكن هذا القليل سيحدث فارقاً كبيراً فى نتائج الاختبار. فإذا استطاع الطفل الأقل ذكاء أن يستمر فى تحصيل قدرات أكبر ومهارات أكثر فسيتفوق على الطفل الذى أعطى قدرًا من التدريب حتى الوقت الذى دخل فيه المدرسة ثم تضاعل بعد ذلك عندما ترك وشأنه.

س: إذا أنت تفرق بين النبىه والذكى؟

ج: أكيد. ففى حياتى العملية كنت أكل بعض الأعمال إلى أناس نبهاء ولكن كانت تعوزهم المبادأة والثقة التى تعطى نتائج. فأنتم تعلمون أن بعض أبنائنا الذين يتسمون بالنباهة إلى حد كبير فى المدرسة لا يبرزون دائماً فى حياتهم وهم كبار على حين أن ذلك الطراز من النوع الهادئ الذين ينقلون خطاهم فى بطء يدهشون فى بعض الأحيان أسادتهم المتشائمين وآباءهم.

س: لماذا أنت ضد الذكاء؟

ج: لا قطعاً: فأنا لا أعدو أن أفرق بين الذكاء والمهارة الدراسية أو القابلية للتعلم والتثقيف. إننى لا أبخس المثقف حقه. بل على العكس. فعندى تعصب كبير للثقافة وأشعر أننا لا نوفيها حقها من الاحترام.

ولكن ما أحاول أن أقوله أن الاستعداد الثقافى ليس هو كل شىء بالنسبة للذكاء. وفضلاً عن ذلك فأنا أتحدث عن أناس أذكىء لا ينعصر اهتمامهم فى التحصيل الدراسى بل فى الفن أو الدين أو الاجتماع. ففى الماضى كان المثقف ينكر وجود أى نوع آخر من الذكاء خلاف ذكائه وأنا أجادله فى هذا الزعم. فالإنسان الذى لم يتعلم أبداً كيف يقرأ أو يكتب. ولكنه يستطيع أن يرى بنظرة واحدة الأشباه والفروق والذى يستعمل رأسه ويديه بسرعة وكفاية لا يمكن أن يكون غير ذكى. فأعظم المكتشفات والمخترعات أهمية مثل استعمال النار وصناعة الخزف وزراعة

البذور وتأسيس الحيوانات وهي مهارات تعتمد عليها كل حضاراتنا قام بها أقوام لم يكن لديهم حروف للهجاء. فالتقّف ليس هو الشخص الذكى الوحيد فى مجتمعنا.

س: ولكن الأستاذ لويس ترمان من جامعة إستانفورد قام بدراسة أكثر من ألف طفل موهوب وكانت نسبة الذكاء عندهم عالية وقد وجد أنهم عندما وصلوا إلى سن البلوغ كانوا أكثر نجاحاً من الناحية المالية وكان لهم مركز مرموق فى المجتمع عن الأعضاء العاديين فى المجتمع. فما قولك فى هذا؟

ج: هناك الكثير مما يمكن قوله. فى المقام الأول: أن دراساته أظهرت أن الأعضاء من مجموعته الموهوبة كانوا أكثر صحة وأشد قوة وأطول من المتوسط العادى فى هذا المجتمع. وثانياً: أن دراساته أشارت إلى أن معظم أعضاء هذه المجموعة كانت لديهم فرص متاحة للتعليم العالى، وهذا يعنى أن عائلاتهم قد أعانتهم من الناحية المالية والعاطفية على الحصول على التعليم العالى. وثالثاً: أنهم برهان على الحقيقة التى تقول بأن الأولاد والبنات الأقوياء جسمياً وصحياً ويتلقون تعليماً عالياً هم أكثر احتمالاً لكسب أكثر من النقود والحصول على مرتبة اجتماعية أعلى من أولئك الأولاد والبنات الأضعف منهم بنية والذين كانت فرص التعليم أمامهم أقل. أو بعبارة أخرى: إن مجتمعنا يدفع أكثر - وفى حدود خاصة - للذين تلقوا تعليماً من الذين لم يتلقوا أى تعليم. ومع ذلك فهؤلاء الألف من الموهوبين لم يكونوا بين أولئك الذين ساهموا بأكبر قسط فى هذا الجيل. فالكتاب الكبار والمصورون والموسيقيون ورجال الأعمال وبلاختصار أولئك الذين هم فى قمة النجاح ليسوا بالضرورة من أولئك الذين كانت لهم نسبة ذكاء عالية وهم فى المدرسة.

س: هل تريد أن تصل من كلامك إلى أن اختبارات الذكاء قد يمساء فهمها واستغلالها؟

ج: شكراً لكم على هذا السؤال. فإنه يلخص وجهة نظرى بدقة.

٧

إن الذكاء مثل الجمال لا يقاس إلا بما يؤديه. إن الذكاء ليس شيئاً تقننيه، إنه شىء تفعله. إنه سلوك. إنه يعنى أن تفكر وتقول وتعمل الشىء المناسب فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب.

والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يزيد فى رحاب سلوكه الذكى بالتفكير. إنه يفعل ذلك بتحسين مهاراته النوعية عن طريق السيطرة على التفاصيل كيف؟ بتوجيه انتباهه الشديد لأى شىء يفعله أو يمارسه فى الوقت الذى يفعله ويمارسه فيه. ثم بعد ذلك يسترجع

فى خاطره ويستعيد ما يشعره أن يعيد كرة الحياة مرة أخرى ليرى كيف كان يمكنه أن يفعل ما فعل بشكل أقوم وأحسن، وبهذه الطريقة يعد نفسه ليتصرف بطريقة تتسم بذكاء أشد فى المرة القادمة التى يقوم فيها مثل هذا الموقف بالإضافة إلى أنه مستمر فى الحصول على مهارات جديدة ليقابل بها المواقف الجديدة.

وأول مطالب السلوك الذكى هو معرفة النفس أو الذات. فمعظم الناس يأخذون نفوسهم على أنها قضية مسلمة كما لو أن اكتشاف النفس كان أقل أهمية من اكتشاف أمريكا. فكل إنسان يستطيع أن يكون خرسstof كولومبس مكتشف أمريكا بالنسبة لذاته. ففى رحاب النفس محيطات مجهولة لا بد من عبورها وقارات غنية لا بد من تنميتها. فهذا البحث والاستكشاف وعمل الخرائط للباطن — أى البصيرة السيكولوجية أو النفسية — هو على النقيض من التخبط والدوران حول النفس فى دوائر وعدم التقدم أو الوصول إلى مكان. فلكى تتصرف بذكاء فالواجب عليك أن تعرف إلى أين تريد أن تذهب. وأن يعلم المرء مطالبه واحتياجاته، ويعلم ما يكافح من أجل عمله. فنحن دائماً سائرون فى اتجاه أو آخر تدفعنا ضغوط خارجية وقوى داخلية. فهل سنكون كالقارب الذى تلعب به الأمواج وقد أفلت زمامه من المرفأ ودون أن يكون به قائد يعيده سالماً إلى الميناء؟

فإنك عاجلاً أو آجلاً تقع على ما تستهدفه. فلتعلم إذا غاياتك وأهدافك ومقاصدك. ولتعلم مطالبك واحتياجاتك ولوازمك. ولتجعلهما أمامك باستمرار. فإن أفجع الشخصيات فى الأدب الروائى أو فى الحياة، هو الإنسان الذى أساء وضع أحلامه. فاستبقها لنفسك حيث يمكن أن تقع عليها عيناك عند أول بادرة.

إن الرجل الذى يعرف ما عزم على الوصول إليه لا يمكن أن يعوقه شىء فهو يعثر على الطرق والوسائل، كما تعثر عليه الطرق والوسائل فإن الطيور على أشكالها تقع. ففرص النجاح فى العمل تأتى كرشوة فقط للرجل الحريص على جمع الثروة. أما بالنسبة للآخرين فهى تلبس رداء يخفيها عن الأنظار.

وهذا ما يمكن أن يقال بالنسبة للمهارات التى نستعملها فى حياة ذكية فنحن نلتقطها حيث نجدها. ولكن بما أن بعض الباحثين عن الذهب واليورانيوم يبدون بحثهم وقد تسلحوا بمعرفة كافية بعلم الجيولوجيا (طبقات الأرض) فكذلك يمكن للآخرين أن يحصلوا على مهاراتهم بمثل هذه الطريقة الذكية.

فالقدرات العقلية الأولية السبع التى أورد ذكرها ثيرستون وهى — المقدرة الحسابية، طلاقة اللسان، الفهم اللفظى، الذاكرة، والتعقل، المهارة فى إدراك الأبعاد، السرعة فى الإدراك — هذ كلها مهارات نوعية لها تقريباً طابع التطبيق العام ويمكن تنميتها بالتدريب الذكى.

ومما يبعث على السرور أن كل مهارات جديدة نكتسبها ترفع من قيمة المهارات التي سبق اكتسابها. نعم إن زدت في أى قدراتك العقلية الأولية فإنك تضاعف من كفاية جميع ماعداها. فالمهارات كأعضاء فريق الكرة الجيد. كل واحد يساعد الجميع. وهم يعملون معاً. إن الفريق هو الذى يتيح الفرصة للنجوم أن تلمع كأفراد.

وإلى بعض هذه العلاقة الوثيقة يميل بعض الناس إلى الخلط بين القدرات العقلية وبين خاصية مميزة يطلقون عليها الذكاء العام. فلا تدع هذه الفكرة المثبطة للهمة تطغى على تفكيرك وتشوشه. فالذكاء ليس شيئاً منفرداً مستقلاً ومعزولاً عن الطابع العام لحياتك. فليس هو بقدرة أو قوة تعيش بمعزل عن شخصيتك بكاملها وبالوقف الذى أنت فيه تتصرف. فليس فى العقل حواجز.

ولهذا السبب فليس هناك حاجز بين ما تسميه العقل وما تسميه الجسم. فليس العقل روحاً بلا جسد وليس الجسد ميتاً حياً. فكلاهما وجهان لشيء واحد هو أنت.

كما أنك لا تعيش وتحيا بكيانك فى فراغ. فأنت تعيش وتتصرف هنا وهناك، وفى مواقف حقيقية واقعية ترتبط بك وتستطيع أنت بعملك أن تغيرها. إنك قوة فى عالم مشحون بالقوى، ولست شيئاً معزولاً بمفرده ولكنك جزء من جهاز أكبر. فكلنا أجزاء من بعض توحد بيننا علاقات وصلات قد نتجاهلها ولكنها لن نتجاهلنا أبداً.

فهذه الحقائق تجعلنا نضع اختبارات الذكاء فى وضعها الصحيح. فهى فى جوهرها عبارة عن أداة مستنبطة لتساعدنا على تقدير الاستعداد للتحصيل الدراسى. أما أحسن ما يمكن أن يقال عن نسبة الذكاء فهى أنها عصا مقياس خام غير دقيق.. وعندما أراها تستعمل كعصا تحطم بها ثقة الصغار عديمى الحيلة بأنفسهم أحس أنه يجب إنقاذنا من هذه العصا.

فأى شخص عادى طبيعى يمكن أن يستبدل الخلط والفوضى فى التفكير ويحل محلها التفكير وأن يحل المهارة محل الخرق والسخف والنجاح محل الفشل وذلك باستغلال مهاراته الحالية واستعمالها فى تحسين وتقوية نفسه. وإن تاريخ الإنسان على الأرض هو عبارة عن قصة إصلاح الإنسان المستمر لنفسه وتحسينها. ولن يفوتك أبداً القطار أو تشعر أن زمانك للتعلم قد فات. فالتعلم يحافظ على شبابك. وينبوع الشباب الذى ظلت البشرية أمداً طويلاً تبحث عنه هو فى متناول يدك وميامه الدافقة تبعث الحياة. إن ينبوع الشباب هو ينبوع التعلم. فلترتو منه فى بيتك.